بسم الله الرحم الرحيم

إخوانيـــــــات ذوي الرحم

عند هاشـــــــم الرفاعـــي

دراســـــــة أدبية تحليلـــية

دكتور : عبادة إبراهيم أحمـــــد

إخوانيات ذوي الرحم

عند هاشم الرفاعي

فقد كان موضوع الإخوانيات لا يلقى عناية الباحثين ، ولا يثير اهتمامهم ، ولا يعدو أن يكون حاشية من حواشي الدراسات الأدبية ، وذيلاً تذيل به تلك الدراسات ، وذلك لكونه غامضاً غير واضح في أذهان كثير من دارسي الأدب العربي ، ولكونه قاصراً غير شامل ، لا يكاد يتجاوز الشعراء والأصدقاء وما يدور بينهم ، مما يكون بين الإخوان من تهنئة بعافية ، أو نعمة جدت ، أو شكر على هدية ، أو عتاب أو على جفوة ونحو ذلك .

على خلاف ما أظهرته لنا الدراسة الفاحصة الدقيقة لهذا المفهوم ، من اتساع حسب ما صورته لنا المعاجم اللغوية ، والمصادر الأدبية ، وآراء الفلاسفة وعلماء الاجتماع ، وأفذاذ النقاد ، كاشفة عن أبعاد هذا اللون الأدبي ، وإظهار مدي ضلوع الأدباء فيه . في ضوء العلاقات الاجتماعية التي تكون بين الأدباء وغيرهم من أفراد المجتمع ، على تعدد مستويات وألوان هذه العلاقات ، ولأنها تكشف عن جانب مهم في حياة الشعراء وأممهم ، يصور مدي تشابك العلاقات الاجتماعية .

ولهذه الأهمية كانت دراسة أدب الإخوانيات دراسة جدية عميقة مستوعبة مستفيضة ، وعلى أضواء العلاقات الاجتماعية ، في كل عصر من عصور الأدب على حده ، ولكل أديب منفرداً وبالتركيز على لون ومستوي معين عنده ، وبتجميع هذه الدراسات تتكون صورة لهذا اللون من الأدب في كافة عصوره .

فكانت الدراسات التي تناولت هذا الموضوع في حلقات متتابعة من عصر إلي عصر في العصر الجاهلي ثم في العصر الإسلامي ، ثم في العصر العباسي ، ثم في العصر الأيوبي ، وهكذا في دراسة كاشفة لأبعاد هذا الفن عند الأدباء في العصر برمته .

وكانت هذه الدراسة الفاحصة المتعمقة لإخوانيات بلبل من بلابل الشعراء ، الذي لم يمهله القدر أكثر من عشرة أعوام ، شدا فيها بألوان الغناء الوجداني والاجتماعي والوطني والقومي ، لدينه وبني دينه ، ولكل مجتمعه مرتبطاً بكل ارتباط ما ، تعد حلقة من حلقات الإخوانيات .

والشاعر مع حداثة سنه ، وطراوة عوده ، إلا أنه كان يملك موهبة مبدعة شدا بها واثقا متمكناً كابن الخمسين والستين ، ويكفيه شهادة معاصريه ، وما نال من تقدير في عمره الشعري الذي لا يتعدى عقداً من الزمان ، فظهرت عنده الإخوانيات بألوانها المتعددة ، ومستوياتها المختلفة ، لتعدد علاقاته بغيره من أفراد مجتمعه، ولتعددها وتنوعها ركزنا علي جانب منها وهو (إخوانيات ذوي الرحم) عند الشاعر ، مظهرين حدود هذه العلاقة وأبعادها ، وعلائقها المختلفة بما تحمله من ود وحب وأخوة أكيدة ، معرفاً بأخوة ذوي الرحم ، كاشفاً عن مفهومها وما تتسع له علي ضوء آراء علماء الأدب والاجتماع ، فشملت الأخوة الحقيقة وأصولها وفروعها وسائر القرابات النسبية ، حيث حللت هذا النوع من الإخوانيات تحليلاً أدبياً يكشف عن مضمونها ، ومدي كثرتها أو قلتها ، وقوتها أو ضعفها ، وأنهيت هذه الدراسة بخاتمة .

إضاءة على حياة الشاعر

١. هو السيد بن جامع بن هاشم بن مصطفي الرفاعي ، ينتهي نسبه إلي الإمام أبي العباس أحمد الرفاعي الكبير ، مؤسس الطريقة الرفاعية في القرن السادس الهجري ، بأم عبيده في العراق .

٢. اشتهر باسم جده (هاشم الرفاعي) في حياته تيمناً به ، وباسم (هاشم الشهيد) بعد وفاته .

٣. ولد في مارس ١٩٣٥م وتوفي في أوائل يوليو ١٩٥٩م في قرية إنشاص الرمل التابعة لمركز بلبيس محافظة الشرقية .

٤. حفظ القرآن الكريم ، وتعلم مبادئ القراءة والحساب ، والتحق بمدارس التربية والتعليم ، ولكن لم ترقه هذه الدراسة ، فالتحق بالأزهر الشريف من ٤٧-١٩٥٦م حتى حصل على شهادة الثانوية الأزهرية التحق بعدها بدار العلوم .

٥. نشأ في بيئة دينية ،حيث كانت لأسرته ريادة الطريقة الرفاعية ، بما لها من شعائر وطقوس وتفتحت عينه علي الأدب الشعبي علي يد شاعر الربابة (السيد فرج السيد) وملحمة أبي زيد الهلالي بالإضافة إلي مكتبة الأسرة الحافلة بكتب التراث دينياً ولغة وأدباً ، وبيئة اجتماعية طاهرة في ظلال الريف الجميل ، وبيئة علمية في الأزهر ودار العلوم وطبيعة ساحرة جذابة ، وأحداث وطنية وقومية وإسلامية ساخنة ، اجتمعت كل هذه الروافد لتصب في حياة شاعرنا ، والذي تفاعل معها بصدق وإيجابية وموهبة فطرية أصيلة ، فكانت الشاعرية الجبارة التي تمثلت في هاشم الرفاعي .

٦. كان معظم أفراد الأسرة شعراء على تفاوت في إنتاجهم ما بين شعر وزجل .

٧. أنضم إلي رابطة الطلبة التي أسسها شقيقه الأكبر /مصطفي الرفاعي ، ليمارس الطلاب من خلالها مختلف الأنشطة .

٨. كان ثورياً يقود الطلبة في مظاهرات ضد الاحتلال البريطاني ، وضد الأوضاع الفاسدة من الملك أوقادة الثورة ، وشعره سجل حافل لكل ذلك .

٩. بدأ نظم الشعر من ٤٨-١٩٥٩م مواكباً أحداث عصره ، ونفسه الجادة الملتزمة ، ودار شعره حول محاور محددة منها : في ظلال الريف ، من وحي السيرة النبوية ، تحت راية الإسلام ، مواقف شخصية وعربية ، جراح مصر ، وصور عاطفية ، في محيط الأسرة ،وصور وذكريات ، مديح ،هجاء ، رثاء ، الشعر الفكاهى والزجل ، ومسرحية شعرية بعنوان (شهيد بني عذرة) .

١٠. كان شاعراً استوت شاعريته ، ونضجت مع صغر سنه ، حتى تنبأ له الكثيرون بأنه لو أمتد به الأجل لبرز في ميدانه وبز الكثيرين .

آثار الشاعر الأدبية

١- الديوان ، وقد حقق ثلاث تحقيقات :

أ- تحقيق الأستاذ / محمد كامل ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية – ١٣٨٠ – ١٩٦٠ – المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .

ب- تحقيق الأستاذ / محمد حسن بريغش (المجموعة الكاملة) مكتبة الحرمين الرياض البطحاء – ١٩٨٠م .

ج- تحقيق شقيقه المهندس الزراعي / عبد الرحيم الرفاعي الطبعة الأولي ١٤١٧هـ ١٩٩٦ م مكتبة الإيمان بالمنصورة .

٢- قصيدة " أنا مسلم " نشرت بكتاب " نشيد الكتائب" منسوبة للشاعر دون ذكر المصدر ، ثم نقلها محقق كتاب " أناشيد الدعوة الإسلامية " ذاكراً مرجعة " نشيد الكتائب" بزيادة اثنا عشر بيتاً في مقطعين غير متواليين في وسط القصيدة .

في كتاب " أناشيد الدعوة الإسلامية " [1] وللشاعر آثار مخطوطة اطلعت علي اثنين منها عند شقيقة المهندس الزراعي / عبد الرحيم الرفاعي[2] ، وهما :

١ - دماء في الإسلام : مسرحية في ثلاث فصول كتبها نثراً استعداد لصياغتها شعراً ، ولكن لم تنظم وتدور أحداثها حول الفتنة التي قامت في عهد الراشد عثمان بن عفان – رضي الله عنه .

٢ - مأساة يتيم ، أو النفس المعذبة ، وهي قصة نثرية واقعية ، كما قال الشاعر . وهناك مخطوطات أخري أشار إليها المحقق ، ومنها :

١ - مسرحية نثريه عن بلدته (انشاص الرمل) رامزاً بها إلى مصر وأدار بها حواراً بين أنشاص والتاريخ يشترك فيه المثقف والعامل والفلاح ،وقد أهداني صورة منها .

٢ - مسرحية نثريه بالعامية : لم يتضح عنوانها ، ولكن أحداثها تدور حول قضية المر أه في الريف وامتهان كرامتها وضياع حقها .

٣ - صورة لمسرحية نثرية بعنوان "الزباء ملكة تدمر " كتب تصوراً لها من خمسة فصول : عام ١٩٥٦م

٤ - الأيام قصة واقعية ، وهي ترجمة لحياة الشاعر .

٥ - الانتقام لشاب ظلم ويحاول الانتقام .

٦ - قصة واقعية سماها " أصبع القدر"

((١) انظر " نشيد الكتائب " مجموعة أناشيد أبو مازن ٣٨، ٣٩ – دار الوفاء بالمنصورة أناشيد الدعوة الإسلامية المجموعة الثالثة تحقيق أحمد الجدع ، وحسني أدهم – ٧٣- ٧٤ دار الوفاء بالمنصورة ، دار الضياء ط٣ – ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م .

(٢) يلاحظ أن الباحث قام بثلاث زيارات : إحداها لكلية الشاعر ، فلم يجد موضوعات مسجلة عنه حتى نهاية ٢٠٠٣ م/ والثانية إلى عائلته بقرية أنشاص الرمل والثالثة إلي مدينة الزقازيق قابلت فيها أخاه محقق الديوان أ/ عبد الرحيم جامع الرفاعي الذي أطلعني على بعض المخطوطات للشاعر ولبعض أفراد الأسرة.

الدراسات السابقة

١ـ ديوان هاشم الرفاعي تحقيق ودراسة / محمد كامل حتـه / الهيئة العامة لشؤن المطابع الأميرية – ١٣٨٠هـ ١٩٦٠م .

٢ـ الشاعر الشهيد / هاشم الرفاعي / محمد كامل حتـه سلسلة اقرأ – ٢٢٣ – دار المعارف بمصر – ١٩٦١ م .

٣ـمع الشعراء المعاصرين في مصر / عبد الحي دياب جـ١ .

٤ـشعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث /أحمد عبد اللطيف ، وحسني أدهم جرار – مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٧م .

٥ـ نجوم الشرقية / عاطف أباظة – ١٩٨٥م .

٦ـديوان هاشم الرفاعي (المجموعة الكاملة) جمع وتحقيق/ محمد حسن بريغش مكتبة الحرمين البطحاء / عمائر الدغيثر بالمملكة العربية السعودية – ١٩٨٠م .

٧ـالشاعر الشهيد / هاشم الرفاعي ومحنة الحركة الإسلامية د/ سمير الكفراوي – رابطة الشعر – ١٩٩٠ م .

٨ـ الشاعر الشهيد / هاشم الرفاعي اغتراب وألم د/ محمد على سيد أحمد داود الطبعة الأولي -١٤١٢هـ١٩٩١م مطبعة الأمانة بالقاهرة .

٩ـ شعر هاشم الرفاعي دراسة موضوعية وفنية د/ سعد أحمد الحاوي – الطبعة الأولي ١٤١١هـ ١٩٩١م مطبعة الأمانة بالقاهرة .

١٠ـ رسالة في ليلة التنفيذ شهداء الإخوان المسلمون / الشاعر الشهيد / هاشم الرفاعي دراسة وتحقيق وتعليق /مجدي الشهاوى الطبعة الأولي / مكتبه الإيمان بالمنصورة أمام جامعة الأزهر ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .

١١ـ الديوان الممنوع / جراح مصر / القصائد العشر للشاعر الشهيد / هاشم الرفاعي دراسة وتعليق مجدي محمد الشهاوي التاج للطبع والنشر ١٩٩٢م .

١٢ـ ديوان /هاشم الرفاعي (الأعمال الكاملة) تحقيق / عبد الرحيم جامع الرفاعي – مكتبة الإيمان بالمنصورة الطبعة الأولي – ١٤١٧هـ ١٩٩٦م .

١٣ـ هاشم الرفاعي فارس اللغة العربية والإسلام دراسة وتحقيق / عبد الرحيم جامع الرفاعي – دار القلم للدعاية والنشر بالزقازيق١٩٩٦م.

١٤ـسلسلة شاعر ومختارات / هاشم الرفاعي ١٩٣٥ – ١٩٥٩م حامد طاهر عميد كلية دار لعلوم جامعة القاهرة / مكتبة الآداب القاهرة ١٩٩٨م .

١٥ـ شعراء العمر القصير (الشعراء المعاصرون) الجزء الثاني / أحمد سويلم – مكتبة الدار العربية للكتاب الطبعة الأولي ١٤١٩هـ ١٩٩٩م .

١٦ـ شعر هاشم الرفاعى دراسة فنية / بسمة محمد بيومي حسن / كلية البنات جامعة عين شمس (رسالة ماجستير) – ١٩٩٩م .

١٧ـ شعر هاشم الرفاعى دراسة تحليلية أدبية / أسامه فتحي أحمد حسين (رسالة ماجستير) ١٩٩٩م كلية الدراسات العربية بجامعة المنيا .

١٨ـ الاتجاه الوطني بين محمود غنيم وهاشم الرفاعي دراسة فنية وموضوعية / رفعت محمود عثمان أبو العنين (رسالة ماجستير) كلية اللغة العربية المنصورة جامعة الأزهر – ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م .

١٩ـالتيار الاجتماعي في شعر هاشم الرفاعي دراسة بلاغية / محمد سعيد محمد داود كلية اللغة العربية بإيتاى البارود جامعة الأزهر ـ ٢٠٠٢م .

وهناك رسائل قيد البحث ، وهي :

٢٠- البناء التركيبي في ديوان هاشم الرفاعي دراسة بلاغية / خالد حامد مصطفي الويشى (رسالة ماجستير) جامعة الأزهر (كلية اللغة العربية بالمنصورة)

٢١- السمات البيانية في شعر هاشم الرفاعي/ عاشور جلال حسن الحداد / كلية اللغة العربية / إيتاي البارود / جامعة الأزهر (رسالة ماجستير) .

٢٢- هاشم الرفاعي شاعراً محمد محمد أحمد على (رسالة ماجستير) كلية اللغة العربية بالأزهر بالقاهرة .

٢٣- النزعات الوطنية في شعر هاشم الرفاعي / رزق محمد داود / كلية اللغة العربية بدمنهور جامعة الأزهر .

ومن خلال هذا التتبع لم نجد من تعرض لفن الإخوانيات عند الشاعر علي كثرة من درسوا فنه الشعري ولذا تناولنا هذا الفن عنده بالبحث والدراسة في إخوانيات ذوي الرحم .

وهناك دراسات تناولت فن الإخوانيات بالدراسة منذ العصر الجاهلي إلي الآن ومنها :

١- الشعر الإخوانى في ضوء العلاقات الاجتماعية من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي /محمد عثمان الملا (دكتوراه) ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م .

٢- الإخوانيات في الشعر العباسي على ضوء العلاقات الاجتماعية دراسة ونقد وتحليل حتى عام ٣٣٤هـ /محمد محمد خميس شعبان (دكتوراه) ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م .

٣- الإخوانيات في العصر الأيوبي علي ضوء العلاقة الاجتماعية /عبادة إبراهيم أحمد سعيد (دكتوراه) ١٤١٠هـ ١٩٩٠م . فكانت هذه الدراسة حلقة في سلسلة تلك الحلقات .

أخوة ذوي الرحم : دراسة موضوعية :

يراد بتلك الأخوة الحقيقية ، وما يتفرع عنها من أصول وفروع وأزواج وسائر ذوي القربى والرحم علي نحو ما أشرنا إليه سابقاً ، كما رآها العلماء والأدباء ، فهي إذن تتمثل في العلاقة بين الأخ وأخيه ، والأب وابنه ، والابن وأمه ، والرجل وزوجه ، والأمهات والأجداد وأولاد الأخ والأعمام وأولادهم ، ونحو ذلك من ذوي الرحم والقرابة .

فإذا كانت العلاقة علاقة حب ومودة وإخلاص أثمرت أدب المدح والشوق والحنين والرثاء والتهنئة ،وما إلى ذلك ، وإذا كانت علاقة ظلم وخصام وبغضاء أثمرت أدب الشكوى والعتاب والاعتذار والهجاء وغير ذلك ، يقول القرطبي : والعلاقة بين ذوي القربى مبناها على الود والتعاطف والشفقة والرحمة ، وهي أمور فطرية يحسها الإنسان نحو ذوي قرباه ، وتدفعه إلى جلب الخير لهم ، ودفع الشر عنهم ، كما تجعله مغبوناً إذا قصر ذوي القربي في حقه فمنعوه خيراً ، أو لم يشاركوه بأساً، كما تجعله يشعر بعدم الخير فيهم ، والنفع منهم ، يقول بشار :

ولا خير في قربى لغيرك نفعها ولا في صديق لا تزال تعاتبه[1]

وتتفاوت صلة القرابة بين ذوي القربى قوة وضعفاً حسب القرب والبعد ، يقول ابن خلدون موضحاً ذلك : " فإن القريب يجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبه والعداء عليه ، ويود لو يحول بينه وبين ما يصل إليه من المعاطب والمهالك ، نزعة طبيعية في البشر منذ كانوا ، فإذا كان النسب المتواصل بين المتناظرين قريباً جداً بحيث حصل الاتحاد والالتحام ، كانت الوصلة ظاهرة ، فاستدعت ذلك بمجردها ووضوحها ، وإذا كان النسب بعيداً بعض الشيء ، فربما تنرسى بعضها ، ويبقي منها شهرة فتحمل على النصرة لذوي نسبه بالأمر المشهور منه فراراً من الغضاضة التي يتوهمها في نفسه من ظلم من هو منسوب إليه بوجه "[2] ويقول صاحب مفتاح السعادة :" وأخص المخالطة وذوي الرحم المحرم

---

(١) بهجة المجالس للقرطبي – ٧٧٦/١ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ٥٩٤/٢٠٠ القاهرة – ١٩٦٥م .

آكد ، ومنهم حق الوالدين " [1] ، ويفسر ابن مسكويه طبيعة العلاقات بين الأقارب / بقوله في شأن العلاقة الزوجية " إن بين الرجل وزوجه خبرات مشتركة ، ومنافع مختلطة ، وهما يتعاونان عليها ، فالمرأة تنتظر من زوجها تلك الخبرات لأنه هو الذي يكتسبها ويحضرها ، وأما الرجل فإنه ينتظر من زوجه ضبط تلك الخبرات لأنها هي التي تحفظها وتدبرها لتثمر ولا تضيع ، فمتي قصر أحدهم اختلفت المحبة وحدثت الشكايات ، ولا تزال كذلك إلى أن تنقطع أو تبقي مع الشكاية والملامة "[2] ويقول فى شأن الأبوة والنبوة :" إن الوالد يري في ولده أنه هو هو ، وأنه نسخ صورته التي تخصه من الإنسانية في شخص ولده نسخاً طبيعياً ، ونقل ذاته إلى ذاته نقلاً حقيقياً ، ولذلك يحب الوالد لولده ما يحبه لنفسه ، ولا يشق عليه أن يقال له : ولدك أفضل منك ، لأنه يري أنه هو هو ، وأما محبة الولد فإنها تنقص عن هذه المرتبة " [3] مشيراً إلى تفوق عاطفة الأب على الابن في ذلك ، ويقول في شأن الأخوة الحقيقية :" أما محبة الأخوة بعضهم لبعض فلان سبب تكوينهم واحد بعينه " [4] ، وقد تتغير العلاقة بين ذوي القربى من التواد والتراحم إلي التحاسد والتخاصم فيعلل لذلك أبو سليمان السجستاني بقوله " إن ذوي القربى والرحم والنسب يري كل واحد منهم أنه أولى وأحق بحيازة ما لأبيه وعمه ، وأن غيره في ذلك كالمزاحم والدخيل والمتدلي فتحفزه أغراض كثيرة من الحسد والغيرة والتنافس على أن يكون هو وحده حاوياً لتلك المواريث من المال والجاه والقدر والمنزلة ، وهذه أغراض لا تعتري الإنسان البعيد النسب والبلد واللغة والصناعة والخلق " [5] .

وحياة شاعرنا على قصرها النسبي وقصر عمرها الشعري ، فإنها لم تخل من بعض هذه العلائق التي تأثرت بظروف الحياة في عصره وظهر أثرها في أدبه ، فكانت هذه الطائفة من الإخوانيات علي نحو ما تظهره هذه الدراسة .

---

(١) طاش كبرى زادة – ٣ /٢٦١ دار الكتب الحديثة القاهرة .
(٢) تهذيب الأخلاق لابن مسكويه – ١٥٧ ، ١٥٨ مطبعة وادي النيل – ١٢٩٩هـ .
(٣) السابق .
(٤) السابق .
(٥) الصداقة والصديق للتوحيدي -١٥٠.

أخوة البنوة :

وتظهر في إخوانياته إلى أمه وأبيه ، ففي مارس ١٩٥٤م اجتمع عيدان [١] عيد الأم وعيد الربيع ، فانتهز الشاعر هذه الفرصة ليزجي أسمي آيات الشكر لأمه معترفاً بفضلها ، معدداً فضلها عليه وعلى إخوانه ، مقدراً مدي إخلاصها وقيامها بهذا الدور كله ، دون انتظار أجر أو شكر من أحد ، فهي التي غرست الحب في الحنايا ، وربت على المثل الرفيعة مع لبن الرضاعة ، وهي التي تفرح لفرحنا ، وتحزن لحزننا ، وتسهر الليالي عند مرضه أو أحد من إخوانه ، وتفني ذاتها في سبيل إسعاد الآخرين حتى أصبح حبها فرضاً على الآخرين ، وحتى لو عبد غير الله لكان الأقوام أمامها ركعاً وسجداً ، لأنها أضاءت الحياة بحبها وإخلاصها وتجردها .

ويري أن اجتماع العيدين كسي الوجود محبة من فيض الأم وحنانها ، ونضارة من بهجة الربيع وجماله الفتان ، عيد يسطر صحائف حنان ورحمة سالت على زهر الربيع فأينع وتضوع عطره في عيده ، بعد أن ارتدي ثوباً جميلاً من الورد المرصع احتفاء بعيد الحبيبة ،وإذا كانت زهرة الربيع سرعان ما تودع ، فإن مقام الأمومة يرتقي ليتربع علي عرش القلوب في إقامة دائمة ، يقول .

عيد الأمومة والربيع تجمعا ... عيدان قد طلعا على الدنيا معا
كسيا الوجود محبة ونضارة ... لله ما أبهي الوجود وأبدعا
هذا يسطر للحنان صحائفاً ... بيضا وذاك العطر فيه تضوعا
وأطل عيد الأم يغدق رحمة ... سالت على زهر الربيع فأينعا
هذى الرياض قد ارتدت في عيدها ... ثوب من الورود الجميل مرصعا
لبست قشيبا للحبيبة وازدهت ... من بعد أن كانت ثيابا بلقعا
وإذا الربيع أتى بثغر باسم ... سنراه يوماً للرياض مودعا
لكنما الأم المجيدة ترتقي ... في قلبنا عرشاً مقيماً أرفعا
أمي غرست الحب في أحنائنا ... وملأت بالمثل الرفيعة أضلعا

---

(١) إطلاق مسمي (العيد) على كل مناسبة اجتماعية أو غيرها إطلاق غير صحيح ، لأن الأعياد من تشريع الله فقط ، وهما عيدان فحسب ، الأضحى والفطر ، وإذا كان ولابد فليكن يوم الأم أو يوم الأسرة ، وما أشبه .

أمي وقد عملت كل حميدة ... وهدي شربناه غذاء مرضعا
فإذا فرحنا تظهرين بشاشة ... وإذا مرضنا تذرفين الأدمعا
لو أن غير الله يعبد بيننا ... لوجدت أقواماً أمامك ركعاً
يا من سهرت الليل في تمريضنا ... تهدين كأساً للحنان مشعشعا
أمي العزيزة أنت بيت قصيدنا ... إن نحن أنشدناه زنت المطلعا
حفوا بغار رأس من قد قدمت ... روحاً وقلباً بالمشاعر مرتعا
إن الفؤاد وقد أضاء بحبها ... وروابط الإخلاص لن تتقطعا[1]

وفي ٢٥ يونيو ١٩٤٩م يتوفى والد الشاعر رائد الطريقة الصوفية الرفاعية ، التي ورثها عن أبيه عن جده ، وكان الشاعر في الرابعة عشر من عمره ، وبعد فترة وجيزة يبدع إخوانيته هذه ، واصفاً عظم مصيبته في فقد والده ، والآلام والأوجاع التي صبت عليه بعد وفاة والده ، والدموع التي لا تنقطع ، ثم يقيم حواراً ساخناً مع نفسه مرة ناصحا نفسه بأن الدموع لا تعيد إلي الحياة ميتاً ، فهي تذهب سدي لا تجدي ولا تنفع ، ويضفي علي والده رائد الطريقة الرفاعية الصوفية صفة الإمام ، راضياً بقضاء الله تعالي فيه ، الذي لا راد له ولا دافع ، ثم يتحسر على وفاته ، متعجباً كيف يخطفه الموت ، وتضم الأرض جسده ،لكن هكذا حال الدنيا مع أهلها تجرعهم الغصص والمرار ، فالكل يتوجع ويتألم ، يقول علي منوال قصيدة أبي ذويب الهذلي :

أمن المنون وريبها تتوجع ... والدهر ليس بمعتب من يجزع

فيقول في إخوانيته :

أمن المصاب وعظمه تتوجع ... والعين منك سيولها لا تقطع
هذي الدموع أراك تذرفها سدي ... كفكف دموعك إنها لا ترجع
ذهب الإمام فما رأيت لرده ... سبلاً فهل تجدي الدموع وتنفع
ياليتها تجدي إذا لرأيتها ... بحراً عجاجاً من عيون ينبع
لكنه حكم الإله وهل له ... قل لي بربك من يرد ويدفع

---

(١) الديوان – ٣٣٢.

نزل الذي سلب الجنان نزوله ... داراً علمت نزيلها لا يرجع
واحر قلبي كيف يخطفك الردى ... ويضم منك الجسم هذا البلقع ؟
لهفي على الدنيا تزول ولم تزل ... تسقي كئوس النائبات تجزع
كيف الرحيل عن الديار وأهلها؟ ... والكل بات من الأسى يتوجع

ثم يخاطب الفقيد لمن تركه ؟ ولمن يفزع ؟ وذلك من فرط الأسى والألم لفقده والده ، يخاطبه وهو راحل ، ويقيم حوار بينه وبين أهله الذين اتهموه بقسوة القلب ، وجمود العين ، بأن حزن القلوب أقسي وأوجع من حزن الظاهر، ويعود " لمخاطبة الفقيد ، ويقدم له من شعره الذي لا يملك غيره ، وقلبه وأحشاؤه يدمعان دماً ، ويقول :

وفتاك كيف تركته ولمن إذا ... يشكو المتاعب أوالي من يفزع
تالله قد ظلموه إذ قالوا له ... في يوم موتك والأقارب جمع
مات الذي يرعى صباك ولا نري ... عينيك تدمع أو نراك تفجع
حسبوا العيون تنم عن حزن الفتي ... والحزن أقسى في القلوب وأوجع
أبتاه شعري لست أملك غيره ... ماذا عسي غير الرثاء سأصنع
هذا رثائي والفؤاد كأنه ... عين لها الدم والحشاشة أدمع
ما كنت أحسب أنني سأقوله ... يوماً من الأيام فيه أودع

ثم يتجه إلى نفسه يبثها حكماً مسلمات ، صاغها من فرط ما حل به ، فنصفه العاقل يزجي النصح لنصفه الوجداني ، فيسلم للقدر . بأنه يغتال من يشاء وينزع ، وإن أضحك يوماً أبكي غداً ، وإن أطعم حلواً أذاق المر غداً ، وإذا كان لا مفر من هذا ، والإنسان عرضة لهذا وذاك ولا حيلة له في ذلك ،، فالواجب عليه التسليم بقضاء الله تعالي ، فلا يملك إلا الدعاء لوالده بالتحية والسلام ، مع طلعة فجر كل يوم ، وأملنا في اللقاء بين يدي الله تعالي ، فالموت يفرق الأحبة في الدنيا ليجمعهم في الآخرة،يقول :

لكنها الأقدار هذا دأبها ... تغتال منا من تشاء وتنزع
إن تضحك اليوم امرءاً وتسره ... فغداً إليه المبكيات ستسرع

وإذا سقته اليوم شهداً في غدٍ ... يأتيه كأس النائبات المترع
فاذهب عليك من الإله تحية ... ما بدد الظلماء فجر يسطع
وعزاؤنا أن سوف يجمعنا الفنا ... بك فالفناء مفرق ومجمع[1]

وفي إخوانية لجده لا ينسى أن يضفي على والده من صفات المدح الكثير، لأنه جدد بناء المقام ، فألقي عليه السلام ، وبشره بالجنة ، ومدحه بالتقوى وفعل الخيرات ، وقضاء حاجات ذوي الحاجات ، وإذا كان عمره قصيراً فهو كالزهور سرعان ما تذبل وتموت ، ولكنها تترك عطراً فواحاً فكذلك والده ترك ذكراً طيباً وثناء حسناً ، ويقول :

أقام لها ركناً أخو الهدى جامع ... بناها له الحسني فأعلا المبانيا
عليه سلام الله كم كان ذا تقي ... وكم كان براً للجوائج قاضيا
قضي عمره مثل الزهور فعيشها ... قصير ، ولكن تترك العطر زاكيا[2]

الأخوة الحقيقية :

ويرتبط الشاعر بشقيقه ارتباطاً آخر فوق رابطة الدم والنسب ، ارتباطاً روحيا رباط الإيمان والريادة العلمية التي جمعت بين قلبي الرائد والمريد في أخوة واحدة ، فجعلتهما روحاً في جسدين ، مما جعله يحمل لشقيقه الأستاذ مصطفي الرفاعي أجمل الذكريات وأرق المشاعر الطيبة ، حيث كان رائداً لطلاب قريته وكبيرهم ، يقوم علي رعايتهم وتوجيههم إلى الصواب في مدينة الزقازيق ، فأضفي عليه الكثير من الصفات كالريادة العلمية والخلقية النافعة التي تهدي إلي الصواب ، مضفياً صفات الإجلال والمهابة ، ومكناً له كل إعزاز وإكبار، وكيف كانت الرحمة والعدل من أخلاقه حتى لا يخشاه البريء ، ولا يطمع في حقه مقصر أو مذنب ، فلا ينسي الشاعر ذلك وهو يودع موطن صباه / ومجمع ذكراه ، فيقول من قصيدة بعنوان : (ليالي الزقازيق) .

---

(١) الديوان – ٣٨٦، ٣٨٧.
(٢) الديوان ٣٠١.

ومن ارتباط الشاعر بشقيقه ورائده ثورته بسبب ما حدث له ، فقبيل

رعاها الله أياماً قضاها ... بصحبة رائد يهدي الصوابا
وإن العيش يحلو في رفاق ... إذا خافوا لراعيهم حسابا
فلا يخشاه في شيء بريء ... ولا يألو أخا ذنب عقابا
فتلك عهود غرس قد تقضت ... وما عرفوا بها إلا الكتابا[1]

الثورة بأيام تولت وزارة أحمد نجيب الهلالي الحكم ومنذ الليلة الأولي قامت بحملة علي الأحرار والفدائيين ، وفي تلك الليلة حاصر منزل الشاعر سبعون جندياً يفتشون عن السلاح ، ويعتقلون عميد الأسرة الأستاذ / مصطفي الرفاعي ، وظل الشاعر تلك الليلة ليلة (٢٠من شهر يوليو ١٩٥٢) ينفث خواطره الثائرة ثورة البركان / ومما قاله وكأنه يرفع عن أخيه اللوم أو شماتة الشامتين من القبض عليه ،والتنكيل به مع من نكل بهم ، لأنه حر أبي يرفض الهوان ، وما يناله في هذا السبيل فليس فيه عار ، لأنه يسعى إلي المعالي ،ويصور حاله وقلقه على أخيه / وما يعاني من سهد ، وما يدور بخاطره والأوهام تتناوشه من كل جانب مابين يأس وأمل ، وصفو ، وكدر يقول :

إلى أن يقول :

مضي للنوم سمار ... خلت من أنسهم دار
فما أشجي لهم لحن ... ولا قدرن مزمار
وعدت بمهجة حري ... وقلب ملؤه نار
وحولي من سكون الل ... يل والأوهام أستار

كذلك في ربي الوادي ... يذوق المر أحرار
متي رفض الهوان فتي ... فليس يناله عار[2]

وقال عنه أخوه الشيخ / مصطفي الرفاعي في حفل تأبينه في إخوانية له :" بسم الله ، والحمد لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . أيها الأحباب أرأيتم إلي المصباح ..... يشرق حنيناً ..... ثم يختنق ؟

---

(١) الديوان- ٣٣٥ .
(٢) الديوان- ٢٢٥

أرأيتم إلى الزهرة ..... تزهو وتألق .... ثم تذبل وتصوح ؟

أرأيتم إلى الحلم الجميل ..... يحلق الموهوبين في دنيا الأمل من الأماني الرائعات ، ثم يوقظهم في عنف ... ليردهم إلي دنيا الواقع ؟ أرأيتم إلى الأمل الحبيب .....يداعب الآملين .... فيدنو ويدنو ..... ثم يناى ويتلاشى ، فإذا به ومض سراب بقيعة ؟ أرأيتم إلى البيرق يتصدر الموكب مختالاً خفاقاً .... تدق حوله طبول الفرحة .... ثم يطوي وينكس وينفض عنه السامرون؟ كذلك كان هاشم يا أحباب ، مصباح أشرق ثم اختنق ... وزهرة ألقت ثم ذبلت وصوحت ، وحلم جميل طاف بنا ثم ردنا في عنف إلى الواقع المر ..... وأمل تلألأ ، ثم بان أنه ومض سراب بقيعة ، وبيرق طوي ونكس، وانفض عنه السامر الحزين .

ولئن جل المصاب في هاشم – يا أحباب – فإن عزاءنا فيه وعنه أنه قضي شهيد مبدئه وعقيدته وعروبته وقوميته تلك العقيدة والقومية التي تفجر إيمانه بها شعراً ، شعراً فيه عمق الإيمان ووضاءته ودفعه وقوته"[1]

أخوة أبناء العمومة :

وكان الشاعر متشعب العلاقات الاجتماعية ، فقد كان له ابن عم سمي ، تزوج فبعث إليه يهنئه بزفافه في العشرين من فبراير ١٩٥٦م ، وهذه الأخوة فرع عن الأخوة الحقيقية ، فهي التي تليها في المرتبة ، وهي درجة أبعد في السلم الاجتماعي وفي تشابك العلاقات ، كما هو حاصل في ريفنا المصري ،فانتهز فرصة زواج ابن عمه وسميه الأستاذ / هاشم أحمد هاشم الرفاعي [2] ،وعبر له عما يكنه الأخ لأخيه ، من تمني مجد باسم وأمل مشرق وفرحة غامرة ، ونشوي تجتاح الكون والأشياء فرحاً وابتهاجاً بتلك المناسبة السعيدة ، فأضفي الفرحة علي كل من حوله ، فالروائح الطيبة من الزهر ، واللحن والأنغام الساحرة ترددها ربوع الظل والعطر والبشر يعم الأشياء من حوله طالعاً مع الفجر بنوره الذي سري في كل مكان ، فغردت البلابل وأطربت الفؤاد ، وهذا أوان الشعر ، فصوغي يا ربة الشعر منه تيجانا من الدر لأنه يوم عيد ، السرور عم كل الأشياء كيوم الفطر ويوم الأضحى ، ويري ابن عمه شقيق روحه وصنو نفسه ، وهذا ما ألجمه عن

---

(١) الديوان – ٩٧.
(٢) آخر أعماله منصب المدير العام للتربية والتعليم ببلبيس (بالمعاش الآن) .

القول ، فكيف يثني للمرء على نفسه ، ويراه أكبر من كل مدح وتكريم ، ويهدي تحية طيبة إلى أصهاره الغر ، وهم الأستاذ إبراهيم حلمي المحامي ود/ أحمد شوقي إبراهيم أصحاب السمو والشرف والمنزلة العالية ، ويري هذا الزواج توفيقاً من الله إلي الخير ويمتدح أيضاً العروس بأنها لؤلؤة سليلة الطهر والعفاف ، جمعت بين كرم المحتد وشرف المصاهرة ،

شذي من جنة الزهر ... ولحن فاتن السحر
وأنغام ترددها ... ربوع الظل والعطر
وأفراح مغلفة ... بأطياف من البشر
على هذي الربا طلعت ... بمثل تبلج البحر
فعاد النور من ناد ... إلى ناد بها يسري
وغرد بلبل شاد ... على أفنانه الخضر
له طرب الفؤاد وما ... علمنا منطق الطير
فصوغي يا عروس الوحي ... تيجانا من الدر
وهاتي الشعر منضوداً ... فهذا موقف الشعر
شقيق النفس هاشم قد ... سعدت بفرحة العمر
فيومك ضاحك حالٍ ... وعيدك باسم الثغر
أضاء فيك إطنابا ... سنا الأضحى سنا الفطر
أضاء علي جوانبه ... فأمسك واضح العذر
وأرجو ذكر مكرمة ... فما أقوي علي الذكر
فإن قرابتي لك ... قد ثنت قلمي فما يطري
وهل أثني علي نفسي ... وألبس حلة الفخر
فهذه باقتي تسعى ... بزهر طيب النشر
منمقة لكي تهدي ... إلى أصهارنا الغر
أولئك قد سموا شرفاً ... ونبلاً عالي القدر
كذلك شاء ربك أن ... يوفقنا إلى الخير
فنلت اليوم لؤلؤة ... سليلة منزل الطهر
جمعت إليك مختالاً ... كريم الأهل والصهر[1]

يقول :

والشاعر يشارك ابن عمه نفسه الأستاذ / هاشم أحمد هاشم في مناسبة أخري ، وقد توفي خاله المرحوم / إبراهيم أفندي موسي / فنظم إخوانيته

---

(١) الديوان – ٣٦٧ .

في ١٤ يناير ١٩٥٠ م يعزي ابن عمه ويشاركه أحزانه / فيجعل الخطب جللاً، ويترك أثره علي العيون بالدمع ، الذي صار بحاراً من كثرته ، وكأن العيون تحولت إلي ينابيع ماء / وينصحه بالرضا بقضاء الله الذي لا مفر منه في حكم قويمة ، وأضفي علي الفقيد من النبل والكرم ما جعلهما يحييان بحياته ، ويموتان بموته / متمنياً له طول البقاء ، ليبقي النبل والكرم / طالباً من الله الصبر الجميل في الدنيا ، وفي الآخرة خير الجزاء ، عوضاً عن فقد هذا الكريم المفضال/ يقول :

رأيت الخطب جل عن العزاء ... ففاض الدمع ينطق بالرثاء
ففاض الدمع من حزن بحارا ... كأن عيوننا ينبوع ماء
فيا من قد حزنت لفقد خال ... تجمل إنه حكم القضاء
وليس لكائن حي مفر ... لما حكم الإله من الفناء
وددنا أن يعيش النبل دهراً ... وان تحيا المكارم في ارتقاء
وكنا نبتغي للجود عمراً ... ونرجو للندي طول البقاء
ولكن المنية عاجلتنا ... وأودت بالكرم أبي السخاء
إلهي آتنا صبراً جميلاً ... وعوضنا به خير الجزاء

أخوة الأجداد :

وقد ارتبط بأخوة القرابة مع جده الأكبر (هاشم الرفاعي) مع أنه لم يدركه ، فقد توفي منذ زمن بعيد ، ونظراً لكونه رائد الطريقة الرفاعية، وجد الأسرة مما جعل لهم مكانة اجتماعية ودينية خاصة في أرياف مصر ، حيث بني لهم مجداً لا ينسي وشهرة لا تغمط ، وذكراه تتجدد كل عام مع الاحتفال السنوي بميلاده ،فكان الشاعر ينتهز هذه الفرصة ويسجل أسمي آيات الحب والتقدير لجده الأكبر رائد الطريقة الرفاعية ، معلناً في كل المناسبات أنه جدير بما أضفاه من صفات فيها كثير من المبالغة – لا تليق إلا برسول الله – صلي الله علية وسلم – ذاكراً مبررات ذلك من وجهة نظره ، فبدأ إخوانيته في ذكري مولده مايو ١٩٥٢م بالغزل العفيف علي طريقة القدماء ، ثم أحسن التخلص إلي مدح جده فيقول :

دع الوجد واترك ذكر العشق جانبا" وكف عن التشبيب واسل الغوانيا
وسر بالقوافي نحو قوم أعزة ومجد بذكر الأكرمين القوافيا
رجال إذا ما المزن ضنت بمائها هم القطر كلا بل هم الغيث هاميا
متي تأتهم تلق السماحة والندي وإن عدت من دار لهم عدت راضياً
أبوهم إمام الهدي والجود هاشم كثير الأيادي عاش للخير هادياً
همام بني للدين مجداً مؤثلاً وشيد صرحاً للحنفية عالياً
تغني مقيم في الديار ببره ومن سار في الظلماء للبيد طاويا
يجود إذا ضن الجواد بنفسه ويرعى لحق الضيف مادام ثاوياً
ولا خير إلا كان للخير رائدا ولا جرح إلا كان للجرح آسيا
هو العلم والتقوى به الخير والهدى له الدين والدنيا أنار الرياجيا
فهذا الذي إن عاش يحيا مكرما وإن مات يمضي خالد الذكر باقيا

فمدحه بأنه من قوم أعزة أماجد كرام سمحاء ، أهل الندى ، يرضون من زارهم ، وجده هاشم أياديه سابغة علي الناس هاد إلي الخير، يمدحه المقيم والمسافر ، لبره وكرمه وشجاعته ،يرود الناس إلي الخير ، يعالج آلام الناس ، ويحل مشاكلهم بني للدين مجدداً ، وشيد للحنفية صرحاً ، فهو علم للخير والهدي ، في الدين والدنيا ، أنار الظلمات ، وعاش مكرماً ، وذكره خالد باق بعد وفاته ، ثم يقول :

ألم بقبر الشيخ إن جئت زائراً تجد عند قبر الشيخ للخير ناديا
هناك وجوه ظلها الله بالهدي وصبت عليها من سناه الغواديا
دعاها إلى الخير داع فأسرعت تلبي إلي الخيرات في الله داعيا
وليس لعمري من يبيت علي هدي كمن بات من ثوب الفضائل عاريا
مجامع للإرشاد من حج نحوها يكن في الورى من عثرة الإثم ناجيا[1]

فيدعو زوراه أن يلموا بقبر جده ، فساحته ناد للخير والجالسون حوله من أهل وزوار ظلل الله وجهوهم بالهدى والنور ، لأنهم لبوا داعي الله ، وباتوا في طاعته ، فليسوا كمن بات في معصيته ، فهذه مجامع

(١) الديوان –٣٠١.

للخير والإرشاد ، من زارها يبعد عن الإثم ، ويعيش في الهدي والنور ، ولا ينسي أن يمدح والده (جامع) الذي جدد بناء المقام ، ثم يمدح الذين حضروا مولد جده ، ويخص بالذكر النائب الوفدي / عبد العظيم عيد ويمدحه ، ويدفعه ذلك إلى مدح زعيم حزب الوفد ، رافضاً استقالته عن قيادة حزب الوفد ، وعن قيادة الأمة .

وفي إخوانية أخري ألقيت في الليلة الختامية لمولد جده / هاشم الرفاعي في أغسطس ١٩٥٣م ، فقد أضفي عليه من الصفات الكثير ، من شموخ القبة مع علوها ، وجمالها بالزينة والرايات العالية التي ارتفعت لله ، والتي هي محط نزول الملائكة ، والواجب أن يترجل من يقصد بيتهم ، فهم أهل العلا من هاشم ، ثم يقسم (بهم) بأنهم أكرم من السحاب لمن زارهم ، ومنازلهم محل الهدي على مدى الأزمان ، يرثون الرفعة والمجد كابراً عن كابر ، أعلام مشاهير ، معروفون بالكرم يقيمون سوقاً له جمع الأحباب من كل حدب وصوب ، لإطعام المساكين والفقراء والعافين ، وإن لم يسألوا ، ويسقون الصادي الذي أضربه الظمأ ، الزاهدون في متاع الدنيا ، السالكون طريق الولاية والمحبة ، فجعل جزاءهم الذكر الحسن الباقي في الدنيا ، وأعلى قدرهم ورفع ذكرهم ، داعياً له أن ينضر الله قبره فهو موئل البر من معشر باعوا نفوسهم لله يرجون ثوابه ، ويذكرونه في الليل ، ويعبدونه في خشوع وتذلل ، ينتسبون إلى الحسين – رضي الله عنه – الذي هو بعض النبي – صلي الله عليه وسلم –فهم ينتسبون إلى آل البيت ، يقول بعد مقدمة غزلية تخلص منها إلى المدح :

يا راكب الوجناء قد حث الخطا ... في إثر ركب في الدجى متحمل
إن أبصرت عيناك شامخ قبة ... غراء تجتاز السحاب وتعتلي
ورأيت ساحات لها قد زينت ... فبدت لعينك ذات ثوب أجمل
خفقت بها لله أرفع راية ... في ظلالها الأملاك تهبط من عل
فاقصد إلي بيت العلا من هاشم ... وباب أرباب الندي فترجل
قسماً بهم لو زرتهم لوجدتهم ... أندي عليك من الغمام المثقل
تلك المنازل قد أقام بها الهدي ... عنها مدي الأزمان لم يتحول
يرث السنا والمجد فيها كابر ... عن كابر علم أغر محجل

سوقاً أقاموا فيه بذل للقرى ... للبائس العافي وإن لم يسأل
قد جمع الأحباب في ساحاته ... من كل ساع للثواب معجل
المانح المسكين حين يجيئه ... من فيض بر الكريم المجزل
والمصدر الصادي أضربه الظما ... من بعد ما يرو به عذب المنهل
في زخرف الدنيا وفي لألائها ... ما كان غير الزاهد المتبتل
سلك الطريق إلي محبة ربه ... فجزاه بالذكر الحميد الأطول
وحياة منه برفعة موصوله ... وعلاً تعز على السماك الأعزل
يا نضر الرحمن قبراً قد ثوى ... في جوفه للبر أكبر موئل
من معشر باعوا الإله نفوسهم ... يرجون منه مثوبة المتقبل
الذاكرين الله في حلك الدجى ... والراكعين بعبرة وتذلل
والمنتمين إذا نسبتهم إلي ... غصن الفخار من النبي المرسل

ثم يشكو إلى الله حال مصر وحال مواطنيها والكوارث والخطوب تتوالي عليهم ، وتجرأ الطغاة عليهم حتى جعلوا نهارهم ليلاً ، ويعاود الحديث عن المولد وما يدور فيه ، وعن هؤلاء الذين شدوا الرحال جماعات إلى جده ، وأقاموا في خيامهم يبذلون القرى ، وينطلق صوت القرآن من خيامهم ، ثم يفاخر بقومه الفرزدق حين يفخر على جرير بن هشل ، وكلهم من تربية هاشم فخر المجامع الذي رباهم على المكارم ، صاحب الكرم ، وصاحب الذكرى الكريم ذا العلا مجداً وشرفاً علي الأشراف ، الذي سار علي منهج الله ، وأقام دعائم الدين ، وحمي حياة الفقير من تقلبات الزمن وهدي الضال من شر شيطانه ، فهو منارة الإرشاد ، ومقصد كل محتاج ، وغوث كل ملهوف وكريم ، يقصده الجميع ، يقول :

يا رب عشنا في الكنانة حقبة ... نهب الكوارث والخطوب النزل
مرت بنا الأيام في لون الدجى ... نشكو إليك جناية المتوغل
تركوا ديارهم فتلك جموعهم ... حجت إليه وأقبلت في جحفل
نادي مناديهم بباب خيامهم ... يا طالباً للزاد نيلاً أقبل
وبكل ناحية ، وكل محلة ... ينساب للقرآن صوت مرتل
قومي أولئك يا فرزدق فالقني ... إذا ما فخرت علي جرير بنهشل
قوم نماهم للمكارم هاشم ... فخر المجامع في الزمان الأول

رب الندي وصاحب الساحات من ... كان السحاب لكل واد محل
ألقي إليه الأشراف غاية مجدهم ... شهدت له الأضياف أرحب منزل
وأقام للدين الحنيف دعائماً ... ومضي على السنن القويم الأفضل
أما الفقير فقد أجار حياءه ... وحماة من صرف الزمان الحول
وهدي الغوي إلى طريق نجاته ... من شر شيطان وغي مضلل
فمنار إرشاد وكعبة قاصد ... وغيات مذعور وغيث مؤمل[1]

وفي الليلة الختامية لمولد الرفاعي (أغسطس ١٩٥٥) ينشد إخوانيته هذه ، ولكن دون مقدمة غزلية ، حيث وجد الأحباب والأصحاب يخصون جده بالسعي إليه / يحرقهم الشوق ، ويدفعهم وجدهم ، علي بعد المسافات التي أضنت المطايا ، والتي لم تقعد الساعي ولم تعجزه ، فهو لا يعرف اليأس ، ولا يرده ضعف ، ولا يتوانى حتى يدرك بغيته ، لأن نفسه مليئة بالإيمان والطهر ، تفيض بالحب والود ، من كل صوب أقبلو، تهفو أفئدتهم ، يجمع بينهم عهد، أتت جماعات ووفود ، وفد بعد وفد ، تجمعوا في الساحة الكبرى ، يظهر عندهم الإكرام والخير والرفد ، فهم سادات ، رفيعوا العماد ، يوقدون النار لإكرام الأضياف ، وينال من حضر الزاد والقرى ، ولا يردون أحداً ، يقول :

إليك سعي الأحباب والصحب يا جدّ ... يحرقهم شوق ويدفعهم وجد
نجائب أضناها المسير بأهلها ... وطال بها التأويب والرمل والوخد
فما أقعد الساعي لأرضك نأيها ... ولا أعجز الساعي على رحله بعد
وذو الظمأ المشتاق لا يعرف الوني ... ولا الضعف حتى يستبين له الورد
نفوس هي الإيمان والطهر أقبلت ... يفيض بها حب ويملؤها ود
وأفئدة من كل صوت تجمعت ... على طاعة الرحمن يمسكها عهد
أتتك زرافات تغالب شوقها ... وجاء إليك الوفد يتبعه الوفد
وفي الساحة الكبرى أقيمت منازل ... يري عندها الإكرام والخير والرفد
خيام لسادات رفيع عمادها ... يشب إذا أموا لنيرانهم وقد
بها البذل للعافين والزاد والقرى ... وليس لمن يعشو إلي ضوئها ردّ

---

(١) الديوان – ٣٠٣ – ٣٠٦ .

ثم يتحدث عن ضريح جده ، وما لجده من مآثر وأفضال ، فيرى أن الضريح مثوى البر والفضل والتقي ، وفيه الزهد والعلم ، ويظهر اعتزازه بجده ، ويوجه إليه الخطاب ، فدنياه كانت هداية ، وأخلاق كريمة ومثل رفيعة ، وكذلك أخراه فيها ثواب ذلك كله ، فهو مجمع الهدي والرشد ، وقبره غيث للناس ، لأنه فرع من الدوحة النبوية ، يفخرون به لأنه ركن من أركان المكارم ، يمتد إلى كل خير ، ممن سادوا الأنام بدينهم وأخلاقهم ، ولا يسبقهم أحد إلى سؤدد أو مجد فالمعالي لا تنزل إلا بدارهم ، والزمان بعض عبيدهم ، فهم كرام أماجد شجعان ، ينصرون من يستغيث بهم ، خصالهم طيبة ، متواضعين ، فضائلهم كثيرة ، في حسن تقسيم يوضح المعني ويزيده جمالاً ، يقول :

ضريحك مثوى البر والفضل والتقى ... وقبرك فيه الزهد والعلم يا جد
ودنياك كانت للأنام هداية ... وأخراك فيها مجمع الهدي والرشد
وفي الأرض منك النبل والسنا ... وغيث رفيع القدر ما انتظم اللحد
فيا فرع أسمي دوحة نبوية ... وفخر الألي في الله شفهم السهد
ويا غصن أزكي سرحة هاشمية ... إلي كل ركن في المكارم تمتد
لأنت ابن من سادوا الأنام بدينهم ... ومن ليس يعدوهم إلي سؤدد فرد
فلا تنزل العلياء إلا بدارهم ... هم القوم عاشوا والزمان لهم عبد
كرام إذا أعطوا ، شموس إذا بدوا ... كثير إذا نودوا ، قليل إذا عدوا
حسان سجاياهم ، جزيل سخاؤهم ... تواضعهم جم ، فضائلهم عد

وبعد وفاة جده يعلن أنهم ما زالوا علي العهد مقيمين ، لم يتغيروا بعد وفاته ، وأن ما غرس من غرس قد نما وازدهر ، ويستعير الآية الكريمة ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ ﴾ [1] ، فأينعت أزهاره ،وطابت ثماره كالشهد ، فقد شيد منارات للإرشاد ذات مجد تليد ، وجاء من بذلوا الخير في ساحاته ، وعلى أيدهم حل المشكلات ، فقد صدقوا الله

---

(١) سورة الفتح -٢٩.

وعده ، والكريم يصدق الوعد ، وقد تمسكوا بالدين فزانهم وزانوه ، وانت أهل لكل مدح وحمد وشكر يا جد ، يقول :

ويا أبتا إنا على العهد لم نزل ... مقيمين مذ الوي بصارمك الغمد
غرست لنا غرساً فأخرج شطاه ... فآزره فالسوق تنمو وتشتد
فأينع أزهاراً ،وطاب مجانياً ... ولذ ثمار عندها يطلب الشهد
وانت الذي شيدتها فرفعتها ... منائر للإرشاد أمجادها تلد
من الباذلين الخير في ساحه ... ومن يدهم في كل نائبة برد
ومن صدقوا الله وعداً وموثقاً ... وكل كريم عنده يصدق الوعد
ومن لبسوا برد الحنيفية طاهراً ... فزانوه إجلالاً وزانهم البرد
فإن صغت فيك الشعر درا فإنما ... لمثلك يهدي الشعر والشكر والحمد[1]

وهكذا كانت إخوانيات ذوي الرحم ، وهي علي قلتها تصور مدي العلاقات الأسرية التي كانت بين الشاعر وأقاربه ، والتي عبر عنها ممثلة في أخوة البنوة بين الشاعر وأمه وأبيه / ثم الأخوة الحقيقية وأخوة أولاد الأعمام ، ثم أخوة الجد وهي أكثرها ، نظراً لكون جده رائد الطريقة ، ويقام له مولد سنوي ، فكان ينتهز الفرصة ويزجي لجده أسمي آيات المدح والإطراء .

وكان أقواها وأشدها حرارة عاطفة إخوانية البنوة التي يرثي بها والده ، وما تحمل من شعور صادق وحب خالص وفجيعة حقيقية لموت والده ثم إخوانية الأم ، تليها الأخوة الحقيقية في النسب ثم اخوة الأجداد التى أكثر فيها وأفاض ، ثم أخوة أبنا الأعمام ، وقد عدمت إخوانية الزوجة لأن الشاعر لم يتزوج ، وإن وجدت إخوانية (لزميلته فريال) التي كان ينوي الارتباط بها ، كما عدمت علاقة الأخ بأخته وعلاقة العمومة وأبناء الأخوة والأبوة .

ولم تتسع هذه العلائق لأن الشاعر قد فارق مبكراً ، وكان مشغولاً بطلب العلم وعمره الشعري كله عشر سنوات ، ولو طال به المدى لأكثر وأجاد .

---

(١) الديوان ٣٠٧- ٣٠٨ .

وقام الشعر بهذه الإخوانيات ، فلم يكن للنثر نصيب منها . وكثيراً ما استهلت بالمقدمات الغزلية الطويلة في معظمها إلا قليلاً ، ثم التخلص إلي الغرض المقصود . وقد تنوعت أغراض الإخوانيات ، في مجال ذوي الرحم من شوق وحنين إلي تهنئة وتعزية ومدح ورثاء ، وما إلي ذلك في صدقها وحبها وإخلاصها وتجانسها ، وما يتصل بها من أهل وأقارب .

الدراسة الفنية

أولاً الموضوعات العامة

وقد دارت حول الموضوعات التالي :

١- موضوعات عاطفية وشعورية: كالحب والشوق والإجلال والاحترام ويظهر ذلك في ارتباط الشاعر بشقيقه الأستاذ / مصطفي الرفاعي بعلاقة حب عاطفي ، وريادة علمية ملأت علية جوانحه فيشتاق إليه وإلى أيامه ، فيقول في إخوانية له :

رعاها الله أياماً قضاها ... بصحبة رائد يهدي الصوابا
وإن العيش يحلو في رفاق ... إذا خافوا لراعيهم حسابا
فلا يخشاه في شيء بريء ... ولا يألو أخا ذنب عقابا
فتلك عهود غرس قد تقضت ... وما عرفوا بها إلا الكتابا[1]

ويشتد الحب ويعظم إذا كان للأم ، فيهديها هذه الإخوانية معترفاً بفضلها معدداً آياتها ، مما يدل علي عمق صلة الحب وقوة الرباط بينهما، يقول :

أمي غرست الحب في أحنائنا ... وملأت بالمثل الرفيعة أضلعا
أمي وقد عملت كل حميدة ... وهدي شربناه غذاء مرضعا
فإذا فرحنا تظهرين بشاشة ... وإذا مرضنا تذرفين الأدمعا
لو أن غير الله يعبد بيننا ... لوجدت أقواماً أمامك ركعا

---

(١) الديوان- ٢٣٥ .

يا من سهرت الليل في تمريضنا ... تهدين كأساً للحنان مشعشعا
أمي العزيزة أنت بيت قصيدنا ... إن نحن أنشدناه زنت المطلعا[1]

ويرتبط الشاعر بجده الأكبر (هاشم الرفاعي) برابطة الحب والأخوة القوية ، ويظهر ذلك فيما يضفيه عليه من صفات ، يقول :

دع الوجد واترك ذكر العشق جانبا" ... وكف عن التشبيب واسل الغوانيا
وسر بالقوافي نحو قوم أعزة ... ومجد بذكر الأكرمين القوافيا
رجال إذا ما المزن ضنت بمائها ... هم القطر كلا بل هم الغيث هاميا
متي تأتها تلق السماحة والندي ... وإن عدت من دار لهم عدت راضياً
أبوهم إمام الهدي والجود هاشم ... كثير الأيادي عاش للخير هادياً
همام بني للدين مجداً مؤثلاً ... وشيد صرحاً للحنفية عالياً
تغني مقيم في الديار ببره ... ومن سار في الظلماء للبيد طاويا
يجود إذا ضن الجواد بنفسه ... ويرعى لحق الضيف مادام ثاوياً
ولا خير إلا كان للخير رائدا ... ولا جرح إلا كان للجرح آسيا[2]

ويدعو إلي زيارة قبره، ليري الزائر الكرم والجود والسنا والهدي ، يقول في إخوانية أخري :

فاقصد إلي بيت العلا من هاشم ... وباب أرباب الندي فترجل
قسماً بهم لو زرتهم لوجدتهم ... أندي عليك من الغمام المثقل
تلك المنازل قد أقام بها الهدي ... عنها مدي الأزمان لم يتحول
يرث السنا والمجد فيها كابر ... عن كابر علم أغر محجل
سوقاً أقاموا فيه بذل للقرى ... للبائس العافي وإن لم يسأل
قد جمع الأحباب في ساحاته ... من كل ساع للثواب معجل
المانح المسكين حين يجيئه ... من فيض بر الكريم المجزل

إلي أن يقول :

يا نضر الرحمن قبراً قد ثوى ... في جوفه للبر أكبر موئل
من معشر باعوا الإله نفوسهم ... يرجون منه متوبة المتقبل

---

(١) الديوان ـ ٣٣٢.
(٢) الديوان ـ ٣٠٠

الـذاكرين الله فـي حلـك الـدجى والـراكعين بعبـرة وتـذلل [1]

ويصور شوقه إلى جده وشوق الزوار كذلك ، وكيف أنهم يتحملون ما يتحملون في سبيل اللقاء ، مبرراً ذلك بذكر أفضال جده ، يقول :

إليك سعي الأحباب والصحب يا جدّ يحـرقهم شـوق ويـدفعهم وجـد
نجائـب أضـناها المسـير بأهلهـا وطـال بهـا التأويب والرمل والو خد
فمـا أقعـد السـاعي لأرضـك نأيهـا ولا اعجـز السـاعي علـى رحلـه بعد
وذو الظمأ المشتاق لا يعرف الوني ولا الضـعف حتـى يستبين لـه الورد
نفـوس هـي الإيمـان والطهـر أقبلـت يفـيض بهـا حـب ويملؤهـا ود
ضريحك مثوى البر والفضل والتقي وقبـرك فيـه الزهـد والعلـم يـا جد
ودنيـاك كانـت للأنـام هدايـة وأخراك فيها مجمع الهدي والرشد
وفـي الأرض منـك النبـل والسـنا وغيـث رفيـع القـدر مـا انـتظم اللحد
فيـا فـرع أسـم دوحـة نبويـة وفخـر الأولـي فـي الله شـفهم السـهد

إلي أن يقول معدداً أفضال جده :

مـن البـاذلين الخيـر فـي سـاحه ومـن يـدهم فـي كـل نائبـة بـرد
ومـن صـدقوا الله وعـداً وموثقـاً وكـل كـريم عنـده يصـدق الوعـد
ومـن لبسـوا بـرد الحنفيـة طـاهراً فزانـوه إجـلالاً وزانهـم البـرد
فإن صغت فيك الشعر درا فإنمـا لمثلك يهدي الشعر والشكر والحمد[2]

٢- موضـوعات اجتماعيـة كالتهنئـة فـي المناسـبات المختلفـة والتعزيـة والرثـاء ومشـاركة النوائـب ، وغيـر ذلـك فمـن التهـاني تهنئتـه لابـن عمـه وسميه / هاشم أحمد هاشم الرفاعي بزفافه ١٩٥٦ م يقول :

---

(١) الديوان – ٣٠٤ .
(٢) الديوان – ٣٠٧ ، ٣٠٨.

شـــذي مـــن جنـــة الزهـــر ولحـــن فـــاتن الســـحر
وأنغـــــــام ترددهـــا ربوع الظـــل والعطـــر [1]

وقد سبق ذكرها في أخوة أبناء الأعمام . ومن التعازي تعزيته لابن عمه وسميه هذا في وفاة خاله / إبراهيم أفندي موسي مشاركاً له أحزانه .

وموضحاً أثر الخطب علي الناس والأشياء من حوله ، وينصحه بالرضا بقضاء الله تعالي ويضفي علي الفقيد من الصفات الكريمة ما يجعله من أهل المكارم ، يقول :

رأيـت الخطـب جـل عـن العـزاء ففـاض الـدمع ينطـق بالرثـاء
ففـاض الـدمع مـن حـزن بحـارا كـأن عيوننـا ينبـوع مـاء
فيـا مـن قـد حزنـت لفقـد خـال تجمـل إنـه حكـم القضـاء
ولـيس لكـائن حـي مفـرٌ لمـا حكـم الإلـه مـن الفنـاء
وددنـا أن يعـيش النبـل دهـراً وأن تحيـا المكـارم فـي ارتقـاء
وكنـا نبتغـي للجـود عمـراً ونرجـو للنـدي طـول البقـاء
ولكـن المنيـة عاجلتنـا وأودت بـالكرم أبـي السـخاء
إلهـي آتنـا صـبراً جمـيلاً وعوضـنا بـه خيـر الجـزاء[2]

ومن مشاركته النوائب والأحزان مشاركته شقيقه الأكبر / مصطفي الرفاعي الذي اعتقل بعد تولي وزارة أحمد جيب الهلالي ، التي قامت بحملة علي الأحرار والفدائيين ، فشارك أخاه مأساته ، ودفع عنه اللوم والعار وشماتة الشامتين ، فلا ذنب له فيما جرى إلا مواجهه الاستبداد والطغيان ، واضطراب الأحوال السياسية عموماً ، يقول :

إلى

مضـــي النـــوم ســـمار خلـــت مـــن أنســـهم دار
فمـــا أشـــجي لهـــم لحـــن ولا قـــدر مزمـــار
وعـــدت بمهجـــة حـــري وقلـــب ملـــؤه نـــار
وحـــولي مـــن ســـكون الـــ يـــل والأوهـــام أســـتار

أن يقول :

---

(١) الديوان - ٣٦٧ .
(٢) الديوان ـ ٣٩٠

وعلى ضوء هذا التحليل لإخوانيات ذوي الرحم نجد أنها قد انحصرت

كذلك في ربي الوادي يذوق المر أحرار
متي رفض الهوان فتي فليس يناله عار[1]

في (الإخوة الأشقاء) وإخوة البنوة آباء وأمهات ، وأخوة أولاد العم والجد، وقد انعدمت علاقة الزوجية الصريحة لأن الشاعر لم يتزوج ، وإن وجدت له إخوانية إلى من كان يريد خطبتها زميلة الدراسة الطالبة (فريال) التي التزم فيها بأدب الإسلام ، فلم يزد فيها إلى ما حرم دينه .

وقد كانت علاقة الابن بأمه وأبيه أقوي هذه العلاقات النسبية عاطفة وأشدها حرارة ، حيث فقد الشاعر والده صغيراً فترك ذلك جرحاً غائر في نفسه ، فارتبط بأمه مصدر الحنان ومنبع الفضائل التي زرعتها وغرستها فيه وفي إخوانه ، تليها الأخوة الحقيقية في النسب ، ثم أخوة الأجداد التي أكثر فيها وأفاض / نظرا لكون جده هو الذي أورثهم القيام على شياخة الطريقة الصوفية التي هي سبب شهرة العائلة ومجدها في الريف المصري ، تليها أخوة أبناء الأعمام ، وانعدام ماعدا، لقصر عمر الشاعر الزمني ، ولغربته في أبناء طلب العلم بعيداً عن أهله إن في الزقازيق وإن في القاهرة .

الاقتباس والتضمين .

ولقد حفلت إخوانيات ذوي الرحم عند الشاعر بالمعاني الإسلامية والأفكار الدينية التي استمدها من التراث العربي قرآناً كريماً وسنة نبوية وتضميناً لكثير من الشعر العربي والحكم والأمثال والأقوال المأثورة ، وامتلأت بالإشارة إلى الأنبياء والقصص القرآني والشخصيات والأحداث التاريخية .

- أ -

وكان من أثر تغلغل الروح الدينية في نفس الشاعر أن راح يستمد معانيه وأفكاره من القرآن الكريم ويضمن إخوانياته آياته ، ويكثر

---

(١) الديوان- ٢٢٥

الاقتباس منه ، ويردد المعاني الإسلامية ، ونحو ذلك مما جعل هذه الظاهرة سمة بارزة في أدب هذا الشاعر بعامة وإخوانياته خاصة لعمق الروح الديني ، واتخاذ الدين قاعدة ينطلق منها في مواجهة خصومه على كافة ألوانهم ، الذين تكالبوا على ديار الإسلام ،وإلي الإسلام ذاته عقيدة وشريعة وسلوكاً .

ففي إخوانية لجده يقول

غرست لنا غرساً فأخرج شطأه فآزره فالسوق تنمو وتشتد[1]

مشيراً إلي قوله تعالي ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ ﴾[2] .

ويقول في نفس الإخوانية :

ومن صدقوا الله وعداً وموثقاً وكل كريم عنده يصدق الوعد[3]

مشيراً إلي قوله تعالى ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾[4]

و في إخوانية أخرى لجده ، يقول :

من معشر باعوا الإله نفوسهم يرجون منه مثوبة المتقبل[1]

---

(١) الديوان- ٣٠٨.
(٢) سورة الفتح -٢٩.
(٣) الديوان- ٣٠٨.
(٤) سورة الأحزاب – ٢٣.

مشيراً إلي قوله تعالي ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[٢].

وقوله في إخوانية لوالده :

لكنهـــا الأقـــدار هـــذا دأبهـــا تغتـــال مـــن تشـــاء وتنـــزع[٣]

مشيراً إلي قوله تعالي﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٤]

وفي إخوانية لابن عمه يعزيه في وفاة خاله ، يقول :

إلهـــي آتنـــا صـــبراً جمـــيلاً وعوضـــنا بـــه خيـــر الجـــزاء[٥]

مشيراً إلي قوله تعالي﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾[٦]

وفي إخوانية أخرى لابن عمه :

لـــــه طـــــرب الفـــــؤاد ومـــا علمنـــا منطـــق الطيـــر[١]

---

(١) الديوان – ٣٠٤ .
(٢) سورة التوبة -١١١.
(٣) الديوان – ٣٨٧.
(٤) سورة آل عمران -٢٦ .
(٥) الديوان - ٣٩٠.
(٦) سورة المعارج -٥.

مشيراً إلى قوله تعالي : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾[٢].

وفي إخوانية لجده / يقول :

والـذاكرين الله فـي حلـك الـدجى والـــراكعين بعبـــرة وتـــذلل
والمنتمـــين إذا نســـبتهم إلـــى غصن الفخار من النبي المرسل[٣]

مشيراً إلـي قـول الله تعـالي ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[٤]. إلى غير ذلك

- ب -

ومـن اقتباسـه مـن الحـديث الشـريف تـأثراً مباشـراً ، قولـه فـي إخوانية له إلى والدته معترفاً بفضلها :

لـــو أن غيـــر الله يعبـــد بيننـــا لوجـدت أقوامـاً أمامـك ركعـا[٥]

متـأثراً بالحـديث الشـريف " لـو كنـت آمـراً أحـداً أن يسـجد لأحـد لأمـرت المرأة أن تسجد لزوجها "

وفي قوله في إخوانية لجده .

ورعـاهم الـرحمن جـل جلالـه وملائـك الـرحمن قـد حلقـوا[١]

---

(١) الديوان -٣٦٧ .
(٢) سورة النمل -٢٧ .
(٣) الديوان -٣٠٤، ٣٠٥.
(٤) سورة الأحزاب -٣٥.
(٥) الديوان -٢٣٢.

يشير إلى حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم : "وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده " رواه مسلم وقال صلي الله عليه وسلم " إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قالوا وما رياض الجنة ؟ قال حلق الذكر " رواه الترمذى ، وأحمد والبيهقي ، والتأثر غير المباشر كثير ويصعب حصره نظراً لسيطرة الفكرة الإسلامية علي الشاعر .

- ج -

وقد أكثر الشاعر في إخوانيات ذوي الرحم من الاقتباس من الشعر المأثور أو تضمينه أو الإشارة إليه في الأبيات المشهورة ومعانيها ، أو ما إلى ذلك، مما جعله شاعراً تراثياً مرتبطاً أيما ارتباط بالقدماء والتأثر بهم في المطلع قوله في إخوانية لوالده يرثيه .

أمن المصاب وعظمه تتوجع والعين منك سيولها لا تقطع[٢]

علي نمط قصيدة أبي ذؤيب الهذلى :

أمن المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

وفي إخوانية لجده يتأثر بالنقائض التي دارت بين جرير والفرزدق في العصر الأموي ، فيقول .

قومي أولئك يافرزدق فالقني إذا ما فخرت علي جرير بنهشل[٣]

وفي إخوانية لجده ، يقول :

فلا تنس بالذكر المعطر سيداً لما نال من فضل مشى الدهر راويا[١]

---

(١) الديوان - ٢٩٨
(٢) الديوان - ٣٨٦.
(٣) الديوان - ٣٠٥

متأثراً بقول المتنبي :

وما الدهر إلا من رواة قصائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً

وفي إخوانية أخري لجده ، يتأثر بالخنساء في قولها

مطعم منعم خضم معم مخول مهول رفيع العماد

فيقول

خيام لسادات رفيع عمادها يشب إذا أمسوا لنيرانهم وقد[٢]

ومن تضمينه للأشعار المشهورة قوله في إخوانية لجده :

بها البذل للعافين والزاد والقرى وليس لمن يعشو إلى ضوئها رد[٣]

وقوله :

متي تأتهم تلق السماحة والندي وإن عدت من دار لهم عدت راضيا[٤]

مضمنا بعض قول الشاعر (الخطيئة) :

متي تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد

ويضمن إخوانية لجده بعض قول المتنبي :

واحر قلباه ممن قلبه شبم ومن بجسمي وحالي عنده سقم

في قوله :

بان الخليط فعز نوالها واحرَّ قلبك من هوى المترحل [٥]

إلى غير ذلك مما يدل على ارتباطه بتراثنا الشعري.

- د -

---

(١) الديوان – ٣٠١.
(٢) الديوان – ٣٠٧، ديوان الخنساء -٣٦٩ .
(٣) الديوان – ٣٠٧.
(٤) الديوان – ٣٠٠.
(٥) الديوان – ٣٠٣.

من الحكم التي صاغها شعراً قوله في إخوانيات ذوي الرحم في إخوانية لوالده معبراً عن شدة لوعته في فقده ، فنري الحكم تتوالي ، يقول :

هذي الدموع أراك تذرفها سدي ... كفكف دموعك إنها لا ترجع
ذهب الإمام فما رأيت لرده ... سبلاً فهل تجدي الدموع وتنفع
ياليتها تجدي إذا لرأيتها ... بحراً عجاجاً من عيون ينبع
لكنه حكم الإله وهل له ... قل لي بربك من يرد ويدفع
نزل الذي سلب الجنان نزوله ... داراً علمت نزيلها لا يرجع
لهفي على الدنيا ولم تزل ... تسقي كئوس النائبات وتجزع
حسبوا العيون تنم عم حزن الفتي ... والحزن أقسي في القلوب وأوجع
لكنها الأقدار هذا دأبها ... تغتال منا من تشاء وتنزع
إن تضحك اليوم امرأ وتسره ... فغداً إليه المبكيات ستسرع
وإذا سقته اليوم شهداً في غد ... يأتيه كأس النائبات المترع
وعزاؤنا أن سوف يجمعنا الفنا ... بك فالفناء مفرق ومجمع[1]

وقوله في إخوانية لأخيه :

متي رفض الهوان فتي ... فليس يناله عار[2]

وقوله في إخوانية لابن عمه :

وليس لكائن حي مفر ... لما حكم الإله من الفناء[3]

وهذه الحكم وغيرها زادت الأسلوب جمالاً والمعاني تألقاً .
وهكذا نرى ارتباط الشاعر بالتراث قرآناً وسنة وحكما وشعراً ، حتى عد شاعر تراثياً ، ولم تفته كذلك تعبيرات القدماء وطرق صوغهم العواطف والأفكار والمعاني .

---

(١) الديوان – ٣٨٦، ٣٨٧.
(٢) الديوان – ٢٢٥ .
(٣) الديوان – ٣٩٠.

المبالغات : وامتاز الشاعر بالاعتدال في التعبير عن معانيه ، فلم يغال كغيره من الشعراء وكانت مبالغته تتسم بعدم الغلو فيها لطبيعة التوسط التي يلتزم بها الأديب الإسلامي .

يقول في إخوانية لجده ، ذاكراً أفضاله ناسباً إليه أنه (إمام الهدي / سار في الظلماء للبيد طاويا/هو العلم والتقوى به الخير والهدى / أنار الدياجيا/ فلا تنزل العلياء إلا بدارهم /ألقي إليه الأشراف غاية مجدهم)يقول :

أبوهم إمام الهدي والجود هاشم ... كثير الأيادي عاش للخير هاديا
همام بني للدين مجداً مؤثلاً ... وشيد صرحا للحنيفة عالياً
تغني مقيم في الديار ببره ... ومن سار في الظلماء للبيد طاويا
هو العلم والتقوى به الخير والهدي ... له الدين والدنيا أنار الدياجيا [1]

وهي مبالغات / ماذا تركت لرسول الله – صلي الله عليه وسلم – ولصحبه الكرام – رضوان الله عليهم ؟! يظهر أنه نظر إلي وضع الأسر والعائلات في الريف المصري ، وإلى وضع أسرته فكانت هذه المفارقة .

وفي إخوانية أخري لجده ، يقول :

فلا تنزل العلياء إلا بدارهم ... هم القوم عاشوا والزمان لهم عبد[2]

وفي إخوانية أخري ، يقول :

ألقي إليه الأشراف غاية مجدهم ... شهدت له الأضياف أرحب منزل[3]

ومن الغلو في المبالغة قوله في إخوانية لجده :

---

(١) الديوان – ٣٠٠، ٣٠١.
(٢) الديوان – ٣٠٨.
(٣) الديوان – ٣٠٥.

وأنخ ركابك أن وصلت بساحة ... من نورها وجه الفضائل مشرق
هي بعد بيت الله أعظم كعبة ... حج الأكارم صوبها وتدفقوا[1]

ولاشك أنها مبالغة غير مقبولة فأين المسجد النبوي ؟ وأين المسجد الأقصى ؟ إلي غير ذلك من المبالغات التي يقع الشعراء في مثلها كثيراً .

وهذه المبالغات على كل حال تظهر عاطفة حارة ، وإحساساً قوياً ، ومحبة وامعة نحو المكتوب إليه ، فهي صدي للإخوانيات الوثيقة ، وهي وليدة عاطفة صادقة ، ومعظمها من المبالغات المقبولة التي خاض الشعراء قدماء ومحدثين في مثلها إلا ما كان خاصاً بأمور الدين والهداية التي لم يستثن منها ما يناسب مقام الرسول –صلى الله عليه وسلم – وصحبه الكرام – رضوان الله عليهم ، وبعض المقدسات كالمسجد النبوي والمسجد الأقصى .

الأغراض

ومن الأغراض الشائعة في إخوانيات ذوي الرحم

١- المدح

وهو من الأغراض الذائعة في مختلف العصور عند الشعراء على اختلاف اتجاهاتهم وطبائعهم وبيئاتهم ، يصدر في جانب كبير منه عن اتجاه ديني ملحوظ ، وفي البعض الأخر عن اتجاه اجتماعي وديني معاً حيث يتجه إلى مدح الأقارب حباً لهم وداً ، أو لقيامهم بأمر الطريقة إلى غير ذلك فممن تربطهم به رابطة ذوي الرحم وقد وفقنا عند الكثير من نماذجه في إخوانياته ، كمدح الشاعر لأمه معدداً أفضالها ، يقول :

لكنما الأم المجيدة ترتقي ... في قلبنا عرشاً مقيماً أرفعا
أمي غرست الحب في أحنائنا ... وملأت بالمثل الرفيعة أضلعا
أمي وقد عملت كل حميدة ... وهدي شربناه غذاء مرضعا
فإذا فرحنا تظهرين بشاشة ... وإذا مرضنا تذرفين الأدمعا
لو أن غير الله يعبد بيننا ... لوجدت أقواماً أمامك ركعاً

(١) الديوان – ٢٩٧.

يا من سهرت الليل في تمريضنا ... تهدين كأساً للحنان مشعشعا
أمي العزيزة أنت بيت قصيدنا ... إن نحن أنشدناه زنت المطلعا
حفوا بغار رأس من قد قدمت ... روحاً وقلباً بالمشاعر مرتعا
إن الفؤاد وقد أضاء بحبها ... وروابط الإخلاص لن تتقطعا[1]

ويمدح جده هاشم الرفاعي بقوله :

أبوهم إمام الهدي والجود هاشم ... كثير الأيادي عاش للخير هادياً
همام بني للدين مجداً مؤثلاً ... وشيد صرحاً للحنيفة عالياً
تغني مقيم في الديار ببره ... ومن سار في الظلماء للبيد طاويا[2]

ويمدح جده هاشم الرفاعي أيضاً ، بقوله :

ضريحك مثوى البر والفضل والتقى ... وقبرك فيه الزهد والعلم يا جد
ودنياك كانت للأنام هداية ... وأخراك فيها مجمع الهدي والرشد
وفي الأرض منك النبل والسنا ... وغيث رفيع القدر ما انتظم اللحد
فيا فرع أسمي دوحة نبوية ... وفخر الألي في الله شفهم السهد
ويا غصن أزكي سرحة هاشمية ... إلي ركن في المكارم تمتد
لأنت ابن من سادوا الأنام بدينهم ... ومن ليس يعدوهم إلي سؤدد فرد[3]

وربما غلب المدح علي ما سواه من الأغراض في أخوة ذوي الرحم ، ويتسم المدح غالباً بصدق العاطفة وجيشان الإحساس وقلة المبالغة إلا فى بعض المواقف التى نبهنا عليها وكان المدح أقوي عاطفة ويترقرق وداً ومحبه خاصة في إخوانيات البنوة ، وإذا كان المدح يتضمن الثناء على الممدوح ، وإبراز صفاته الطيبة فإن الشاعر يعدد الأفضال ، ويثني علي الممدوح في حرارة عاطفة ، وقوة وجدان ، حريصاً على الالتزام بالأصالة الفنية ، والدقة التعبيرية التي تجعل من إخوانيات مجموعة رفيعة المستوي أدباً وفناً . وكان المدح بالصفات العربية التراثية المادية والمعنوية كالشجاعة والنجدة والمروءة ونحو ذلك من القيام على أمر الطريقة ، بما يلزم من إقامة الموالد ، وإرشاد الناس والكرم والجود ، والأخلاق الكريمة ، والعلم الفياض والكرم الغزير ، وحسن الصحبة

---

(١) الديوان – ٣٣٢.
(٢) الديوان – ٣٠٠.
(٣) الديوان – ٣٠٧.

ولطف المعاشرة، وبشاشة اللقاء ، وعدم الاحتجاب عن الأضياف ، ونحو ذلك من الصفات العربية التراثية المادية كحسن استقبال الزائرين ، وإعداد الولائم ، وإكرام الوفدين والسائلين ، ونصب السرادقات ، ورفع الأعلام والبيارق ، إلى ،غير ذلك .

٢- الرثاء

وهو من أغراض الشعر العربي التي يظهر فيها الشعراء عواطفهم وانفعالاتهم إزاء المرثي متناولين كثيراً من صفاته المدحية التي يثني بها عليه موضحاً بعض مواقفه وأخلاقياته وما يتميز به من صفات كريمة إلى غير ذلك ، كقوله في رثاء والده :

أمن المصاب وعظمه تتوجع ... والعين منك سيولها لا تقطع
هذي الدموع أراك تذرفها سدي ... كفكف دموعك إنها لا ترجع
ذهب الإمام فما رأيت لرده ... سبلاً فهل تجدي الدموع وتنفع

إلى أن يقول:

أبتاه شعري لست أملك غيره ... ماذا عسي غير الرثاء سأصنع
هذا رثائي والفؤاد كأنه ... عين لها الدم والحشاشة أدمع
ما كنت أحسب أنني سأقوله ... يوماً من الأيام فيه أودع[1]

ومن قوله في رثاء جده في إخوانية له :

إليك سعي الأحباب والصحب يا جد ... يحرقهم شوق ويدفعهم وجد
نجائب أضناها المسير بأهلها ... وطال بها التأويب والرمل والوخد
فما أقعد الساعي لأرضك نأيها ... ولا أعجز الساعي على رحله بعد

إلى أن يقول :

وفي الساحة الكبرى أقيمت منازل ... يري عندها الإكرام والخير والرفد
خيام السادات رفيع عمادها ... يشب إذا أمسوا لنيرانهم وقد

(١) الديوان – ٣٨٦.

بها البذل للعافين والزاد والقرى وليس لمن يعشو إلي ضوئها رد[1]

وقد اعتمد الرثاء على صدق العاطفة ، والبعد عن الغلو في المبالغة إلا فيما نذر ، والتفجع علي الميت بذكر ما يمتاز به من شجاعة وإقدام وبر وكرم وجود وتدين وإيمان وغيرة على الحق وهداية للناس ، والحديث عن منزلته في الدنيا ، وعظيم ثوابه في الآخرة ، ونحو ذلك من الأعمال التي تبلغ به هذه المنزلة ، مما يرفع مقامه عند الله وعند الناس ، وإن لم يخل من مبالغات ، خاصة رثاءه لجده كقوله :

فلا تنزل العلياء إلا بدارهم هم القوم عاشوا والزمان لهم عبد[2]

وقوله

فاقصد إلي بيت العلا من هاشم وبباب أرباب الندي فترجل
قسماً بهم لو زرتهم لوجدتهم أندي عليك من الغمام المثقل
تلك المنازل قد أقام بها الهدي وعنها مدي الأزمان لم يتحول[3]

وهي علي كل حال من المبالغات المقبولة أدبياً ، وقد وقع فيها غيره من الشعراء . والرثاء يعد مظهراً من مظاهر تصوير المكنون من المحبة والإخلاص والأخوة الصادقة ،كما كان ينبع عن شعور ذاتي أحياناً ، كرثاء الابن لأبيه أو لجده ، وكان يتسم بإظهار الفجيعة ومدي الخسارة التي لحقت بأحبائه . وبالعالم من حوله بفقده وموت الفضائل والمكارم بموته ، وعدم الاغترار بالدنيا والتحذير من الركون إليها ، وضرب الأمثال بمن سبق من الأمم والعظماء ، ثم إظهار محاسن الفقيد ، وجزاؤه عند الله في جنات النعيم ، والعودة إلى الإقتداء به والتجلد والصبر على فقده ، والرضا بقضاء الله ، فقد يدعوا آخر الأمر للميت بالسقيا على عادة القدماء ، ويخاطب القبر من عظم المصاب ، ويدعو للقبر أن ينضره الله، ويعطر الترب والمثوى ، ويوضح أن جوار الله خير جوار ، والعزاء أن

---

(١) الديوان – ٣٠٧.
(٢) السابق .
(٣) الديوان – ٣٠٤.

بعد الفراق لقاء يوم الحساب ، ويطلب من الله الصبر والسلوان ، وحسن الثواب في الآخرة .

وكان الرثاء في أخوانياته يتسم بدقة التصوير للمواقف المختلفة ، ومشاعره نحوها والآثار النفسية المرتبطة بها في سهولة ويسر متغلغلاً في أعماق النفس الإنسانية مما جعله يتحدث عما في نفوس كثير من المتلقين .

٣- التعزية

وهى من الأغراض المألوفة فى الشعرية بين الإخوان ، ومن ذلك ما رأيناه من تعزية ابن عمه الأستاذ / هاشم أحمد هاشم فى وفاة خاله المرحوم إبراهيم أفندى موسى يقول :

رأيت الخطب جل عن العزاء ... ففاض الدمع ينطق بالرثاء
ففاض الدمع من حزن بحارا ... كأن عيوننا ينبوع ماء
فيا من قد حزنت لفقد خال ... تجمل إنه حكم القضاء

إلي أن يقول :

ولكن المنية عاجلتنا ... وأودت بالكريم أبي السخاء
إلهي آتنا صبراً جميلاً ... وعوضنا به خير الجزاء[1]

ومن هذا يبدو أن هذا الغرض يجيء في المقام الثاني بعد الرثاء ، وإن غلب الرثاء على التعزية لأنها داخلة فيه ضمناً ، وتشيع في إخوانيات النسب والقرابة ، وهي مشاركة وجدانية تستدعيها الأخوة الصادقة والمحبة العميقة ، وفيها يدعو المعزي للمعزى ، ويعرب عن ألمه لألمه، وحزنه لأساه ، ويدعو له بأن يكون المصاب آخر أحزانه ، وان العزاء عن فداحة الخطب هو سعادة اللقاء في الآخرة / طالباً من الله الصبر وحسن الثواب التماساً لرضاه .

---

(١) الديوان – ٣٩٠ .

٤- الوصف

وهو من الأغراض الشعرية التي تستوعب الكثير من طاقات الشاعر الفنية ، وتتجلي فيه قدرته على الإبداع ودقة التصوير ، وقد أجاد فيه الشاعر إجادة واضحة لفتت الأنظار إلى فنه وأدبه . وإذا كان الوصف يراد به إعطاء صورة ذهنية عن مشهد أو شخص أو إحساس أو زمان للملتقي ، فإن أبا هلال العسكري يقول " وأجود الوصف ما يستوعب أكثر معاني الموصوف حتى كأنه يصور لك الموصوف فتراه نصب عينيك"[١] ، ويقول ابن رشيق : " (أبلغ الوصف ما قلب السمع بصراً " [٢] وهنا يظهر الشاعر سر تفوقه وشهرته . يصف الشاعر في إخوانيته لجده ورود الوفود من كل القرى القريبة والبعيدة ،وشعورهم الحثيث الذي يدفعهم إلي زيارة الأحبة ، وكلهم أمل وشوق ألا يغلق الباب دونهم طالبين الهداية ، يقول :

أسرع فديتك كي نلم بدارهم ... ونري وجوها بالجلالة تنطق
ونشاهد الأحباب قد جمعوا بها ... ولهم بذكر الله قلب يخفق
ثملوا بشرب الهدي من كأس التقي ... فشرابهم نعم الشراب الريق
ورعاهم الرحمن جل جلاله ... وملائك من فوقهم قد حلقوا
لا البغض شق إلي النفوس سبيله ... كلا ولا شمل هناك مفرق
بل ثم دين خالص وهداية ... والله جل إلي الرشاد موفق
اجهر بصوتك إن وصلت ونادهم ... من النداء من الأحبة أخلق
يا قوم إني قد وقفت بباكم ... والباب دوني لا أظن سيغلق
عطفاً على ولست أنشد غيره ... فالعطف أحرى بالكرام وأليق
ودعت قومي وانطلقت يسوقني ... أمل ويدفعني رجاء صادق
وأتيتكم أبغي النجاة من الأذى ... يوم الغمام به السماء تشقق
وإذا اهتدي عبد بهدي أولي التقي ... يسقيه من كأس النعيم الخالق [٣]

---

(١) الصناعتين – ١٢٨،١٢٩.
(٢) العمدة – ٢/ ٢٧٩ .
(٣) الديوان – ٢٩٧،٢٩٨.

وفي إخوانية أخرى لجده يصف الزائرين ، وما يفعلونه من زيارة قبر الشيخ ، وأثر التقي والهدى علي وجوههم ومدي إجابتهم للدعوة ، يدفعهم شوقهم الجارف لرؤية الأحبة ، يقول :

ألم بقبر الشيخ إن جئت زائراً ... تجد عند قبر الشيخ للخير ناديا
هناك وجوه ظلها الله بالهدي ... وصبت عليها من سناه الغواديا
دعاها إلى الخير داع فأسرعت ... تلبي إلي الخيرات في الله داعيا
وليس لعمري من يبيت علي هدي ... كمن بات من ثوب الفضائل عاريا
مجامع للإرشاد من حج نحوها ... يكن في الورى من عثرة الإثم ناجيا[1]

وهذا الوصف المفصل لوفود الزائرين ، ومدي تعلقهم بهذه الزيارة ، والشوق يدفعهم رغم بعد بلادهم ، وقد جمع بينهم الحب في الله ، فيشربون كؤوس المحبة،والملائكة تحلق فوقهم ، يتحلون بكل الصفات الجميلة واقفين بالباب ينتظرون أن يفتح لهم طالبين العطف عليهم ، والنجاة من الأذى ، خائفين المصير يوم القيامة ، كما يصف ما يفعلونه من استلام قبر الشيخ ، وأثر رضاهم ، والبشر على وجوههم ، لأنهم لبوا دعوة الخير لله ، ويقارن بينهم وبين من يبيت على معصية ، ويري أن الزيارة تنجي من عثرات الآثام . ولم يخل الوصف من عبارات التفخيم والتبجيل لجده ووالده نظير قيامهم على ريادة الطريقة ، زيادة على أساليب المبالغة والتهويل التي تناسب المقام ما داموا هم أعلام الهدي إلى غير ذلك مما يناسب المقام .

٥- التهنئة

وهي من أغراض الإخوانيات الذائعة ، فمن تهنئة بالشفاء إلى تهنئة بوظيفة أو بارتقاء منصب وما إلى ذلك مما يدور في نطاق الحياة الاجتماعية ، كما في إخوانيات ذوى الرحم مهنئاً ابن عمه وسميه / هاشم أحمد الرفاعي بزفافه ، يقول :

---

(١) الديوان – ٣٠١.

شـــذي مـــن جنـــة الزهـــر ولحـــن فـــاتن الســـحر
وأنغـــام ترددهـــا ربـــوع الظـــل والعطـــر
وأفـــراح مغلفـــة بأطيـــاف مـــن البشـــر

إلي أن يقول مثنياً علي عروسه :

فنلـــت اليـــوم لؤلـــؤة ســـليلة منـــزل الطهـــر
جمعـــت إليـــك مختـــالاً كـــريم الأهـــل والصـــهر[1]

وهذه التهنئة من الإخوانيات التي تتضمن التعبير عن فرح الشاعر وابتهاجه بهذه المناسبة ، كما تتضمن مدح المهنأ والثناء عليه ، واستحقاقه لما نال من نعمة أو منزلة أو جاه ،وأثر ذلك على من حوله من الفرح والسرور والبهجة / ثم شكر الله تعالي على ما أوتي من نعمة ، وما أفاء من فضل وإحسان . ولم تخل من عبارات التفخيم والتبجيل ، وأساليب المبالغة والتهويل بما يناسب المقام .

٦- المشاركة الوجدانية

وكانت بين الشاعر وإخوانه ، يتألم لألمهم ، ويفرح لفرحهم ، ويشاركهم شعورهم ، كما تقضي الأخوة القوية بذلك ، فلما قبض على أخيه الأكبر الشيخ مصطفي الرفاعي انتفض مشاركاً له في محنته ، دافعاً عنه اللوم أو شماتة الشامتين ، ثائراً من أجله ، بقول :

مضـــي للنـــوم ســـمار خلـــت مـــن أنســـهم دار
فمـــا أشـــجي لهـــم لحـــن ولا قـــدرن لهـــم مزمـــار
وعـــدت بمهجـــة حـــري وقلـــب ملـــؤه نـــار
وحـــولي مـــن ســـكون الليـــل والأوهـــام أســـتار

إلى أن يقول :

---

(١) الديوان - ٣٦٧.

كـــذلك فـــي ربـــي الـــوادي يـــــذوق المـــــرأ حـــــرار
متـــي رفـــض الهـــوان فتـــي فلـــــيس ينالـــــه عـــــار[1]

ومن مشاركته الوجدانية لأخيه وشقيقه الأكبر / مصطفي الرفاعي ما قاله عندما رشح نفسه لمجلس الأمة عام ١٩٥٧م فاستبعد اسمه من الانتخابات يقول موجهاً حديثه إلى عبد الناصر :

هـاهم كمـا تهـوي فحـركهم دمـي لا يفتحـون بغيـر مـا تهـوى فمـا
إنـــا لـــنعلم أنهـــم قـــد جُمِّعـــوا ليصـــفقوا إن شـــئت أن تتكلمـــا
وهم الذين إذا صببت لنا الأسى هتفـوا بـأن تحيـا لمصـر وتسـلما
لـم تلـق خيـراً منهمـو ليشـرعوا مـا تشـتهي ويكبـر والـك كلمـا
قـد كنـت مكشـوف النوايـا فاتخـذ مـنهم لتحقيـق المطـامع سـلما
وسطوت قبل اليوم تحذر لائماً فـالآن تسـطو لا تخـاف اللومـا[2]

وهذه المشاركة الوجدانية تدخل في باب الحب القوي والود المتبادل بين الشاعر وأخيه وكيف وصلت به المشاركة إلى حد بعيد ، جعلته يأخذ جانبه ، وكانت قوية صادقة العاطفة ، مما يتناسب مع صدق الأخوة وقوة الرابطة ، وكان أقواها ما كان بعد الثورة ، لكثرة ما حدث من قادتها من انتهاك لحرية الشعب ، وما ناله وأسرته عن قرب .

٧- الحكم

ومن معالم الجمال في إخوانيات ذوي الرحم الحكم القويمة التي يطعم بها إخوانياته ، سواء أكانت من صنعه أم من صنع غيره ، فتزيد السامع لذة فكريه إضافة إلى لذته الوجدانية ، وإن كانت غير مستقلة عن غرض الإخوانية فتوجد في أثنائها تؤكد معانيها وتزيدها قوة إلى قوتها . يقول في أخوانية لوالده :

لكنهـــا الأقـــدار هـــذا دأبهـــا تغتـــال منـــا مـــن تشـــاء وتنـــزع
إن تضـحك اليـوم للمـرء وتسـره فغـداً إليـه المبكيـات ستسـرع

---

(١) الديوان - ٢٢٥.
(٢) الديوان – ٢٧٣. .

وإذا سقته اليوم شهداً في غدٍ يأتـه كأس النائبات المترع[1]

وبقول في إخوانية لأخيه :

متـي رفـض الهـوان فتـي فليس ينالـه عـار[2]

ويقول في إخوانية لابن عمه / هاشم أحمد هاشم معزياً في وفاة خاله :

وليس لكائن حـي مفـر لما حكم الإلـه من الفناء[3]

ويقول في إخوانية لجده :

في هذه الدنيا وفي أحوالها عظة للبيب وعبرة للمتأمل
إن الإلـه لممهل لكنـه ما كان يوماً للغوي بمهمل[4]

وهكذا يطعم إخوانياته بحكمه الموجزة المسلمة ، التي تضيء الأسلوب ، وتقوي المعاني ، وهي في معظمها حكم من التراث ، ولكنه صاغها في أسلوب جديد ، فجعلها جديدة أو كالجديدة .

٨- التشوق والحنين

ويشتاق الشاعر إلى أخيه وإلى أيامه ، وهو يرعاه مع طلاب قريته ، وكان كبيرهم ورائدهم ، وكان يأخذهم بكثير من الحزم والجد ، يقول

رعاها الله أياماً قضاها بصحبة رائد يهدي الصوابا
وإن العيش يحلو في رفاق إذا خافوا لراعيهم حسابا
فلا يخشاه في شيء بريء ولا يألو أخا ذنب عقابا

---

(١) الديوان – ٣٨٧.
(٢) الديوان – ٢٢٥.
(٣) الديوان – ٣٩٠.
(٤) الديوان – ٣٠٦.

فتلك عهود غرس قد تقضت وما عرفوا بها إلا الكتابا[1]

ويشتاق إلى جده ، فيقول في إخوانية له :

دعاني إلى الإنشاد شوق سما بيا وما كنت لولا هزة الشوق شادياً
رمتني صروف الحادثات بسهمها وحسبي شفاء أن أرى الحب دانيا
أأخفي وفي الإخفاء نار ولوعة وأكتم والكتمان يدمي فؤاديا

إلى أن يقول :

ألا أيها الباكي على طل الهوى تنادي سقى الله العهود الخواليا
وتشدو قريضاً كله الحب والنوى به الشوق والذكري لك الله لاهيا
دع الوجد واترك العشق جانباً وكف عن التشبيب واسل الغوانيا
وسر بالقوافي نحو قوم أعزة ومجد بذكر الأكرمين القوافيا[2]

ويقول في إخوانية أخرى :

أسرع فديتك كي نلم بدارهم ونري وجوهاً بالجلالة تنطق
ونشاهد الأحباب إذ جمعوا بها ولهم بذكر الله قلب يخفق
ثملوا بشرب الهدي من كأس التقي فشرابهم نعم الشراب الريق[3]

ويقول أيضاً :

إليك سعي الأحباب والصحب يا جدّ يحرقهم شوق ويدفعهم وجد
نجائب أضناها المسير بأهلها وطال بها التأويب والرمل والو خد
فما أقعد الساعي لأرضك نأيها ولا أعجز الساعي على رحله بعد
وذو الظمأ المشتاق لا يعرف الوني ولا الضعف حتى يستبين له الورد
نفوس هي الإيمان والطهر أقبلت يفيض بها حب ويملؤها ود

---

(١) الديوان- ٣٣٥ .
(٢) الديوان- ٣٠٠.
(٣) الديوان- ٢٩٧.

أتتــك زرافــات تغالــب شــوقها وجاء إليك الوفد يتبعه الـــــوفد [1]

وهكذا يتشوق الشاعر لا إلي فتاة ولا إلي وصل وحب وما إلي ذلك ، ولكنه يتشوق إلى صحبة أخيه ، وحسن رعايته له ، ولبقية طلاب قريته والقرى المجاورة ، وإلى أيامه الأولى التي قضاها بصحبة هذا الرائد ، وإلى جده ، وما كان له من أمجاد تاريخية ، دينية وأخلاقية رفعت من شأنه وشأن الأسرة جميعها .

هذه معظم الأغراض في إخوانيات ذوي الرحم عند الشاعر ، وإن كان هناك موضوعات أخرى ليست ذات بال ، والكثير من هذه الأغراض جدد، وأعيد إليه شبابه ، فكان مناسباً لعصره و موضوعه .

وهذه الأغراض في مجملها تعكس ما بين الإخوان من صلات وطيدة ، وإخوة صادقة ، وتجانس متين وكان من حيوية هذه الأغراض إضفاء الجانب الإسلامي الذي زاد على الجانب الإجتماعى بكمه وكيفية وقضاياه حرارة عاطفة ، واستعارة وجدان ، ومعان جديدة ، وقضايا حية معاصرة، مما زاد في روحها وعطائها الإخواني ، ولا يكاد غرض من هذه الأغراض يخلو من المدح والإطراء بين الأخوين حسب مكانة الأخ، وقوة العلاقة بينهما .

أهم الخصائص الفكرية لشعر إخوانيات ذوي الرحم عند هاشم الرفاعي :

١- التأثر بالثقافتين العربية والإسلامية (قرآناً وسنة وسيرة وتاريخا وحكماً عربية ، بني منها مادة إخوانياية ، وبثها من خلال معالجته لها .

٢- التأثر بثقافة : العصر والإطلاع علي ما يدور فيه من قضايا سياسية واجتماعية وثقافية وغزو فكري سياسي واقتصادي وما إلى ذلك من قضايا العصر .

---

(١) الديوان- ٣٠٧.

٣- كثرة المعاني ووفرتها بسبب عمق ثقافة الشاعر العربية والإسلامية والعصرية وكثرة تجاربه والاحتكاك بمشكلات العصر بمشكلات العصر ، وقضايا الأمة على اختلاف مستوياتها .

٤- صياغة الأفكار العميقة في أسلوب سهل ميسر ، بأسلوب السهل الممتنع .

٥- الأفكار صحيحة في جملتها ، وهي تدل علي مدي عمق ثقافة الشاعر ، ومدي تفتحه الذهني والفكري .

٦- زين معانيه بالحكمة التي هي خلاصة تجاربه في الحياة ، وهي تجارب عميقة ، رغم حداثة سنه ، وقوة تجربته وعمقها .

٧- ظهور الروح الاجتماعية بدلالتها الواسعة التي كانت أساساً لهذه الإخوانيات .

٨- الربط بين الإخوانيات وقضايا العصر ومشكلاته التي تؤثر في حياة الأمة .

العاطفة

الفن الصادق تعبير عن الحياة ، وعلي قدر ما يحتوى التعبير من الصدق تكون قيمته في الفن وحظة من العمق والأصالة ، اتساق التعبير مع الشعور يتحقق الصدق الفني ، فما العاطفة عند : الشاعر إلا أثر من آثار الانفعالات التي تثيرها أحداث الحياة ووقائعها ، سواء كانت هذه الأحداث مما يجرى خارج الإنسان وتستقبله حواسه لتنقله إلي مراكز الانفعالات في أعماقه أم كانت تلك الأحداث والوقائع مما يصنعه الإنسان بخياله قريباً مما يحدث في الواقع المادي ويتوجه به إلى حواسه ومشاعره لتنقله إلي مراكز الانفعال في أعماقه النفسية كذلك [١] . فالعاطفة في الشعر تعد عنصره الأول الذي يبث في الأفكار روعة وحياة قوية تسهل فهمها وتدفعها في النفوس [٢] وهي التي تعطي النص أدبيته التي يتميز بها عن

---

(١) في النقد الأدبي الإسلامي د/ إبراهيم عوضين - ٢١٥ .
(٢) أصول النقد الأدبي / أحمد الشايب – ٣٠٤.

غيره من النصوص العلمية ليكون نصاً أدبياً ، وهي التي تجذب المتلقين إلى الأديب وتربط بينهما ، وتساعد الأديب علي نقل صورة مما انطبع في نفسه ، وما تشبع به وجدانه ليسكبه في وجدان المتلقين ، وتجعلهم يعيشون نفس الحالة الشعورية التي عاشها الأديب ، وبمقدار صدقه في عاطفته ، وقدرته على التعبير عن إحساسه وشعوره ، يستطيع أن يؤثر فينا ،وبقدر قوتها بكون أثرها التعبيري ، ويشعر بها القارئ سارية في الألفاظ والعبارات والخيال الموسيقي وتختلف من موضوع لآخر حسب طبيعة الموضوع ، فبعض الموضوعات يحتاج إلي عاطفة هادئة ، وبعضها يحتاج إلى عاطفة صاخبة ، كما تختلف من أديب إلى لآخر ، ومهما خف وقعها في موضوع ما فإنها لا تنمحي البتة ، بل لابد لها من آثار تدل عليها ، وتختلف العاطفة من أديب لآخر ، تبعاً للإحساس الأديب ومزاجه وعمره السني ، فالشاعر حساس إلي حد بعيد ، بل وسابق في عالم الحس والشعور ، فالشاعر يشعر بما لا يشعر به غيره ، ويشعر قبل غيره ، ويشعر أعمق من غيره ، ويستطيع التعبير عما يشعر به ، فهو رسول في عالم الحس والشعور .

وتميزت إخوانيات هاشم بالتكامل بين عناصر العمل الشعري والمقومات الشخصية مما جعله مثار إعجاب الآخرين ولفت انتباه الجميع إلى فنه وذوقه .

والعاطفة هي التي تبين مدي انفعال الشاعر بتجربته وموضوعه ، وذلك واضح من دراستنا التحليلية للنماذج وما فصلناه من الموضوعات والأغراض ، واتضحت لنا القيم الشعورية لكل غرض من الأغراض ، أو موضوع من الموضوعات فيما كشفنا عنه من قوة العاطفة أو تراجعها، ومن صدق العاطفة أو كذبها .

وقد كانت العاطفة أقوي جيشانا وأشد حرارة في مجال في مجال ذوي الرحم ، كما في إخوانية لوالده ، التي أنفعل فيها انفعالا حاراً ، بين مدي حرقته على موت والده ، وكونه مشبوباً علي فراقه ، وعاطفته ملتاعة لرحيله ، وقد تركه نهباً للأحداث تتلاطمه يمنة ويسرة ، يقول :

أمن المصاب وعظمه تتوجع ... والعين منك سيولها لا تقطع
هذي الدموع أراك تذرفها سدي ... كفكف دموعك إنها لا ترجع
ذهب الإمام فما رأيت لرده ... سبلاً فهل تجدي الدموع وتنفع
ياليتها تجدي إذا لرأيتها ... بحراً عجاجاً من عيون ينبع
لكنه حكم الإله وهل له ... قل لي بربك من يرد ويدفع
نزل الذي سلب الجنان نزوله ... داراً علمت نزيلها لا يرجع
واحر قلبي كيف يخطفك الردى ... ويضم منك الجسم هذا البلقع ؟ (١)

فلا شك أن العاطفة مشبوبة لفقد والده ، ويظهر أثر هذا الانفعال الآسي الحزين ، ويظهر فيها الصدق الفني في نقل التجربة بعبارات معادلة لحرارة العاطفة وقوة الشعور ، ويلاحظ هنا المواءمة بين الصياغة والعاطفة حيث جاءت العبارة موحية بجو الحزن والأسى الذي يعيشه الشاعر ، ونقله الشاعر إلينا حتى أحزننا لفقد والده ، وكونه بعده نهباً للأحداث ، فجعل الدموع سيولاً ، وجعل والده إماماً ، ويجعل الدموع بحراً عجاجاً مرة أخري ويجعل موته سالب للعقول ، ويتعجب كيف يخطفه الموت ،وكيف يضمه هذا القبر ؟ والحزن وحرارته التي تسيطر على قلبه ، وهكذا تمضي العبارة مواكبة للعاطفة ، ملائمة للموضوع محققة للصدق الفني الذي يتطابق فيه الشعور مع التعبير لفظاً وعبارة وصورة ، مما يبين مدي قدرة الشاعر مع صغر سنه على اختيار التعبير والتصوير المناسبين لجو الإخوانية .

وتشب العاطفة مرة أخري عندما يقبض علي أخيه ظلماً وعدواناً ، فقبيل ثورة يوليو ١٩٥٢م تولت وزارة نجيب الهلالي الحكم ، ومنذ الليلة الأولي قامت بحملة على الأحرار والفدائيين ، وفي تلك الليلة حاصر منزل الشاعر سبعون جندياً يفتشون عن السلاح ويعتقلون عميد الأسرة شقيق الشاعر، الأستاذ / مصطفي الرفاعي ، فظل الشاعر ساهراً تلك الليلة ينفث خواطره الثائرة مشاركاً أخاه في محنته في عاطفة ثائرة ضد الظلم الذي مسه عن قرب ، والأوضاع الجائرة التي أصابت الجميع ، يقول :

---

(١) الديوان – ٣٨٦.

مضـــي للنـــوم ســـمار ... خلـــت مـــن أنســـهم دار
فمـــا أشـــجي لهـــم لحـــن ... ولا قـــد رن مزمـــار
وعـــدت بمهجـــة حـــري ... وقلـــب ملـــؤه نـــار

إلى أن يقول :

كـــذلك فـــي ربـــي الـــوادي ... يـــذوق المـــر أحـــرار
متـــي رفـــض الهـــوان فتـــي ... فلـــيس ينالـــه عـــار[1]

ويهدأ أوار العاطفة ، وتخف حدتها ليعدد أفضال جده في إخوانية له يمدحه فيها ، بقول :

ورعـــاهم الـــرحمن جـــل جلالـــه ... وملائـــك الـــرحمن قـــد حلقـــوا
لا البغض شق إلى النفوس سبيله ... كـــلا ولا شـــمل هنـــاك مفـــرق
بـــل ثـــم ديـــن خـــالص وهدايـــة ... والله جـل جلالـه إلـى الرشـاد موفـق
اجهـر بصـوتك إن وصـلت ونـادهم ... مـــن بالنـــداء مـــن الأحبـــة أخلـــق
يـــا قـــوم إنـــي قـــد وقفـــت ببـــابكم ... والبـــاب دونـــي لا أظـــن سيغلـــق[2]

وتشتد العاطفة ، وتعلو نغمتها في إخوانية لجده يشتاق فيها إليه ، فيقول:

دعـاني إلـى الإنشـاد شـوق سمـا بيـا ... ومـا كنـت لـولا هـزة الشـوق شـادياً
رمتني صروف الحادثات بسهمها ... وحسبي شقاء أن أرى الحب دائيا
أأخفـي وفـي الإخفـاء نـار ولوعـة ... وأكـتم والكتمـان يـدمي فؤاديـا

إلى أن يقول :

ألا أيهـا البـاكي علـى طـل الهـوى ... تنـادي سـقى الله العهـود الخـوالي
وتشـدو قريضـاً كلـه الحـب والنـوى ... بـه الشـوق والـذكري لـك الله لاهيـا
دع الوجـد واتـرك العشـق جانبـاً ... وكـف عـن التشـبيب واسـل الغوانيـا

---

(١) الديوان ـ ٢٢٥.
(٢) الديوان ـ ٢٩٨.

وسر بالقوافي نحو قوم أعزة ومجد بذكر الأكرمين القوافيا[1]

فقد اشتد شوقه بما جعله يشدو من شدة حبه وقوة عاطفته التي أثارت فينا شعوراً مشابها لما أحس به من النار المشتعلة في جوانحه ، والفؤاد الذي يذرف دماً ، إلي أن يوجه حديثه إلي قوم أعزة لا يشفي غليله إلا الحديث عنهم وذكر مجدهم .

وتشتد العاطفة وتقوي في إخوانية أخري يتشوق فيها إلي جده ، يقول فيها :

إليك سعي الأحباب والصحب يا جدّ يحرقهم شوق ويدفعهم وجد
نجائب أضناها المسير بأهلها وطال بها التأويب والرمل والوخد
فما أقعد الساعي لأرضك نأيها ولا اعجز الساعي على رحله بعد
وذو الظمأ المشتاق لا يعرف الوني ولا الضعف حتى يستبين له الورد
نفوس هي الإيمان والطهر أقبلت يفيض بها حب ويملؤها ود
وأفئدة من كل صوت تجمعت على طاعة الرحمن يمسكها عهد
أتتك زرافات تغالب شوقها وجاء إليك الوفد يتبعه الوفد[1]

(١) الديوان- ٣٠٠.

فقد سعي الأحباب جميعاً مابين شوق قوي غلاب ، ووجد قاهر ، والنجائب قد أضربها طول السري الذي لم يعجز الأحباب عن الوصول إلى الهدف والمقصد ، زرافات ووحدانا ، والوفود تترى رغم بعد المسافات ، صور جاءت معبرة عن عاطفة : الشاعر الملتاعة ، وشوقه الجارف إلى ذكراه السنوية المتجددة مع مولده جده فلصدق عاطفته وقوتها تقل إلينا ما أحس به ، فأثار انفعالنا ، كما كان انفعاله موائماً بين الصياغة والعاطفة وأساس البناء، بالإضافة لهذه الصور هو اللفظة المعبرة الموحية ، وغير ذلك مما هو من سمات التعبير الجيد وأمارة التمكن من الشاعرية.

فالعاطفة حالة شعورية ترتبط باستعداد نفسي ، وتتولد عن الانفعال بشيء ما رآه أو استحضره فانفعل به ، فنقله إلينا كما أحس به ، وهذا يدل على صدق العاطفة وقوتها وعمقها عند الشاعر في إخوانياته لأنه استطاع أن ينقل إلينا تجربته كاملة ، فأثار في أنفسنا ما أثاره هو محققا الصدق الفني باتساق التعبير مع العاطفة ، كما تعين العاطفة الصادقة المتلقي على اقتراب من معايشة الحدث الذي ينظم فيه الشاعر أن لم يعايشه بالفعل ، وذلك للصدق الفني في القصيدة الناتج من صدق المشاعر مع نفسه ، وما يدور بين جوانحه في إخوانياته ، ثم إن العاطفة هذه قد انعكست على الصور التعبيرية فجاءت مناسبة للإخوانية كل في سياقه ، وهذا التناسب أو الاتساق بين العاطفة وأدوات التعبير من أسرار نبوغ الشاعر والتعلق به وبلوغه شغاف القلوب .

الألفاظ والعبارات

ظل تيار الأدب العربي عبر عصوره يتدفق في مجراه الطبيعي قوياً جزلاً ، غني عن وشي الصنعة بريئاً من التكلف حافلاً بموضوعاته الحية، وأساليبه القوية ، وطبيعته التي لا ترتدي من الزينة البديعية إلا ما ورد عفو الخاطر دون تكلف أو اجتلاب فلما كثرت الفتوحات وشاعت العجمة ، وضعفت السلائق ووهنت ، أخذ الضعف يتسرب إلى هذا الأدب ويدب في فنونه ، ويسري في ألفاظه وأساليبه ، فلم تعد تلك

---

(٢) الديوان- ٣٠٧.

الفصاحة الفصيحة ، ولا الجزالة الجزلة ، ولا الطبيعة السمحة فانصرف الأدباء إلي ألوان البديع يتكلفونها ، ويسرفون فيها محاولين أن يغطوا عورة الكلف والضعف ، وذلك بعد أن فقدوا أو كادوا يفقدون وسائل التجديد ، وانغمسوا في تقليد القدماء ذلك التقليد الذي أوغلوا فيه حتى كاد يفقدهم شخصياتهم الأدبية المجددة المستقلة ، وحين ساد الضعف راحوا كذلك يلجئون إلى الموضوعات التافهة يرجون بها فراغهم ،ويملئون بها مجالسهم .

هذا ما صار إليه حال الأدب بعد عصور القوة في المضمون والشكل والموضوع والغرض ، وعلي الأخص منذ القرن الرابع الهجري، ويدخل في ذلك العصر الفاطمي والأيوبي والمملوكي والعثماني .

وليس معني ذلك أن هذه العصور التي افتقدت مظاهر القوة ، وبدت فيها مظاهر الضعف ، وفقدت كل عمل أدبي حقيقي ، ولئن كانت تلك الحال التي وصفناها هي الطابع الأعم الأغلب ، فقد كانت هناك ومضات فنية في الشعر والنثر على السواء ، تستحق الإعجاب ، وتدل على أن فن الأدب ما زال بخير ، علي الرغم مما يتعرض مجراه من عقاب وصعاب ، حتى كان العصر الحديث ، وبدأ الانتقال التدريجي شيئاً فشيئاً إلى أن ظهر الأدب الجديد على يد البارودي ثم شوقي وحافظ (مدرسة المحافظين) ، ثم (مدرسة الديوان) ، ثم الصحافة والتعليم ، والعوامل الأخرى المحيطة بالحياة الأدبية وما لها من آثار في التحول ، من عصور الضعف والصنعة والتكلف إلى عصور القوة والازدهار، غير أن الاتصال بالغرب بعد احتلاله لبلادنا والتحكم في مقدراتنا التعليمية والثقافية لابد أن يكون له أثره في دخول ألفاظ أجنبية ومعان أجنبية كذلك ، بل وصل الأمر إلى أنه ربى أجيالاً تحمل فكره وثقافته ،وكانت علي الجانب الآخر الغالبية العظمي من أدباء الأمة ومثقفيها التي تحمل فكراً عربياً وإسلامياً ، وتحاول تطعيمه بما يقويه ويخصه من آداب الأمم الأخرى ، وبكل جديد نافع مفيد ، وكان منهم الشاعر هاشم الرفاعي صاحب هذه الدراسة بإخوانياته التي ظهر فيها أثر الحياة الاجتماعية

بكافة ألوانها ، وتشابك الحياة في مصر وتعقدها أدي إلى دخول بعض الألفاظ والتعبيرات العامية ، وارتباط الشاعر بتراثه وثقافته الدينية جعله يقتبس ويضمن إخوانياته من القرآن الكريم والحديث الشريف ، والشعر والحكم العربية ، وكونه من الجيل المحافظ وجدناه يتجه وطبيعة الشعر المحافظ ، التي استهدفت الحفاظ علي مادته الأدبية ، وصورته الفنية التي كان عليها عصر القوة والازدهار بل إنه بتكوينه العلمي والثقافي صار من الاتجاه المحافظ المتمسك بالأصول الثابتة للأمة الإسلامية التي عبأت فيها كل مقاومتها الحضارية الاجتماعية والثقافية في مواجهة الحضارة الأوروبية الغازية التي زاحمتنا محاولة الزحزحة والاستبدال للغتهم وثقافتهم على حساب لغتنا وثقافتنا . والآن ، نريد أن نقف وقفات نستظهر فيها أهم الملامح الفنية من قيم شعورية وتعبيرية لهذا اللون من الأدب على ضوء ما قدمناه من إخوانيات .

ـ اللغة ـ

تمكن هاشم من اللغة أي تمكن ، ويظهر ذلك في براعته في انتقاء ألفاظه المعبرة الموحية في كل سياق بحسبه ، واستطاع أن يعبئها بما يريد من مشاعر وانفعالات ، وثروته اللغوية الكبيرة التي كونها منذ صغره أعطت شاعريته عمقاً وبعداً عظيمين ، جعلته يحسن التصرف في اختيار الألفاظ والعبارات ، وإجادة رصفها وصنعها في دقة وإحكام ، وانه كان يملك أذناً موسيقية دقيقة ، في تكوين النغم الموسيقي المناسب لكل مقام ، وأنه كان يصوغ من كل ذلك وحدة كاملة متكاملة ، محققة النظم كما سماه عبد القاهر[1]

وحين يوجد هذا التكامل بين عناصر الشاعر وأداة البيان يوجد الشعر في أرقي صوره الفنية الكاملة فلا يقصر لفظ عن معناه ، ولا يستشكل لفظ على مخارج حروفه ، ولا يعجز عن قافية ، ولا يفاجأ بصورة نشاز ، بل

---

(١) دلائل الإعجاز – ٦٧ .

التكامل والانسجام وكذلك كان شعر هاشم الذي جمع بين جمال التعبير في الأغراض المتنوعة في كافة القصائد على اختلاف طولها ، جامعاً بين القديم والمستحدث في إطار فني رفيع المستوي فكثيراً ما أثيرت قضية اللفظ والمعني بين الفريقين : من مالوا إلي جانب اللفظ ، ومن مالوا إلي جانب المعني ، وبعث ذلك عدم تكامل الشخصية ، وظهر النص الأدبي إلي حيز الوجود فإن الحكم النقدي علي العمل الأدبي يشكل مرحلة تالية لظهوره للوجود ، وحين يأخذ صورته اللفظية لأن الحكم عليها لا يأتي إلا باستعراض الصور اللفظية التي ورد فيها وبيان ما تنقله هذه الصورة إلينا من حقائق ومشاعر ومن هنا قيمة التعبير في العمل الأدبي[1] وعلى ذلك فإن كان كل تغيير في نسق الألفاظ ، أو تنسيق العبارات وترتيبها ، أوفي طريق تناول الموضوع والسير فيه يؤثر في صورتها التي ينقلها التعبير إلي الآخرين ، ويؤثر تبعاً لذلك في طبيعة الأثر الذي تركته في مشاعرهم ، وفي نوعه ودرجته كذلك [2] واللغة في الأصل تعبير طبيعي عن أفكار الإنسان ، وهي رموز لها وجدت للتعبير عن فكرة ، فإذا أراد أن يعبر بها عن عاطفتة جاوز معانيها المتعارف عليها بحيث تدل على معان جديدة في سياقها الفني مستغلاً إمكانياتها الصوتية [3] والدلالية سواء أكانت دلالة معجمية أم دلالة سياق فالشعر منعم بالمعانى على نحو لا يدنو منه ضرب آخر من ضروب الإنشاء لأن الشاعر يريد للألفاظ حين يستخدمها أكبر قسط من معانيها الدفينة ومشاعرها المخزونة [4] فالألفاظ في العمل الأدبي ليست قوالب جامدة ترص مجاورة كالأحجار في البناء ، وإن اللفظة الواحدة بدلالتها كائن يعيش ويتطور وينقل ويصور كل ما في الحياة من مناظر ويستخدم الشعر هذه الألفاظ في مكان من جسم يحدد قيمتها ويجدد حياتها [5] ، فاللفظة الشاعرية يجب أن تكون نابعة من تجربة حقيقية ، وكل لفظة عند الشاعر مستقلة بوجودها ، متميزة بشخصيتها ، تشارك مع غيرها في رسم الصورة والمعاني والإيقاع والظلال التي تلتقي وتتناسب وجور الموضوع متعاونة مع غيرها في ذلك وكذلك كانت اللفظة عند هاشم

---

(١) النقد الأدبي سيد قطب – ٣٤ ط ٥ دار الشروق .
(٢) من النقد الأدبي كمال نشأت – ٣٩ .
(٣) فنون الأدب تشارلتن -١٢٨ .
(٤) شعر الهذليين - ٢٣٧.
(٥) النقد الأدبى سيد قطب – ٣٧ ، ٣٨ .

الرفاعي ، وسيلة لنقل التجربة الشعرية ، بكل قيمها شعورية وتعبيرية إلى المتلقين مصوراً إياها اعتماد علي ما يحمله التعبير من دلالات كامنة لغوية أو إيقاعيها أو تصويرية تتضافر كلها لتكشف لحظة من لحظات الحياة الشعورية فإذا تكاملت الرؤية عند الشاعر و إذا أدرك أن للألفاظ نسقاً ونظاماً وجواً يسمح لها بأن تشع أكثر مما في شحنتها من الصور والإيقاع ، وأن تتناسق ظلالها وإيقاعها مع الجو الشعوري الذي تريد أن ترسمه ، ولا يقف بها عند الدلالة المعنوية الذهنية ، ولا يقيم اختياره علي هذا الأساس وحده ، وإن يكن لابد منه في التعبير ليفهم الآخرون ما يريده ، وأن يرد للفظ الحياة التي كانت له وهو يطلق أول مرة ليصور حالته حية قبل أن يصور له معني ذهنياً مجرداً ، فالملابسات هي التي تحدد اختيار لفظ دون لفظ في السياق ، ملابسات شتي يصعب تحديدها ، وفي أولها نوع التجربة الشعورية وطبيعة الانفعال بها ، في هذه النفس الخاصة ، ونوع الانفعال ودرجته " [1] .

ومن هنا نري قوة انتقائه للألفاظ الموحية المعبرة ، وحسن اختياره لها وتوظيفها توظيفاً جيداً ، جعلها تشع علي ما حولها ، وقدرته على نسجها في تراكيب دالة علي هذا الموقف الذي هو بصدد الحديث عنه ، والذي لم يترك شيئاً من جزيئاته إلا وقد ألم به إلماماً واضحاً ، ولم يترك قضية من القضايا الدقيقة التي تخفي في كوامن النفس مما يكون بين الإخوان إلا عبر عنها بطريقة فنية مميزة ، بعيداً عن الغريب والمعقد من الألفاظ في سهولة ويسر .

ومن حسن استخدامه للألفاظ في الإخوانيات ، أن وجدنا ألفاظاً تتصل بالحب والود والرغبة والإقبال بين المحبين ورفع شأن المحبوب وإعلاء قدره في قوله تحت عنوان (عيد الأمومة) يصف فرحته بعيد الأم ، وينتهز الفرصة ليزجي لوالدته أسمي آيات الشكر والعرفان نظير جهدها وجهادها في تربيته وإخوانه ، نجد ألفاظ (كسيا / الوجود / محبة / نضارة / يسطر / للحنان / صحائف / بيضاً / العطر/ تضوعا/ أطل / يغدق / رحمة / زهر الربيع / الرياض / الورد / الجميل / مرصعا / ثغر / باسم / الأم المجيدة / ترتقي.

---

(١) السابق .

فى قلبنا إلى آخره ، يقول :

عيد الأمومة والربيع تجمعا ∴ عيدان قد طلعا على الدنيا معا

كسيا الوجود محبة ونضارة ∴ لله ما أبهى الوجود وأبدعا (١)

إلى آخر ما قال على نحو ما ورد فى أخوة البنوة لأمه ، إلى غير ذلك مما يدل على حسن اختياره للألفاظ المعبرة الموحية .

وفى إخوانية لوالده نجد ألفاظاً تدل على مقدار فجيعته فيه ، وتناسب جو الرثاء والحزن لفراق الوالد ، فنرى (المصاب عظمه / تتوجع / العين / سيولها / الدموع / تذرفها / ذهب / الإمام / لرده / سبلاً / تجدى / الدموع / بحراً عجاجا / سلب / واحر قلبى / يخطفك الردى ... إلى آخره فى قوله:

أمن المصاب وعظمه تتوجع ∴ والعين منك سيولها لا تقطع

هذه الدموع أراك تذرفها سدى ∴ كفكف دموعك إنها لا ترجع (٢)

إلى آخر ما قال كما سبق فى أخوة البنوة لأبيه ، فنرى الألفاظ مناسبة لمقام الرثاء ، وجو الحزن المسيطر على الشاعر مما يدل على قوة سيطرة الشاعر على أدواته ، والتمكن من اللغة مع أنها من بواكيره الشعرية .

٢- ووجدنا ألفاظاً تتصل بالفرح والسرور ، وتناسب جو التهنئة بالزفاف من مثل (شذى / جنة الزهر / لحن / فاتن السحر / أنغام / ربوع / الظل والعطر / أفراح / البشر / الربا / الفجر) فى قوله :

شذى من جنة الزهر ∴ ولحن فاتن السحر

---

(١)الديوان - ٣٣٢

(٢) الديوان – ٣٨٦

وأنغـــام ترددهـــا ∴ ربـــوع الظـــل والعطـــر [1]

إلى آخر ما قاله كما فى إخوانية أبناء العمومة ، فكانت الألفاظ مناسبة للسياق العام ، معبرة موحية بجو الفرح الذى يقتضيه السياق .

٣- ووجدنا ألفاظا تتصل بموضوع الإخوانية وتناسبها بدلالتها الشعورية والتعبيرية ، كما فى بيان تأثير الحياة الدينية فى البيئة الصوفية ، التى كانت أسره الشاعر تقوم على ريادة إحدى الطرق الرئيسية بما لها من شيخ وأتباع وإمام ومريدين ومقام وساحات وأعلام وأولوية وبيارق وموالد تقام وتستمر أياماً وليالى ، يقصدها العوام من كافة الأرجاء ومصطلحات التصوف من المدد والنظرة وغير ذلك مما تسرب إلى أخوانيات النسب والقرابة ، كما فى قوله :

ذهب الإمام فما رأيت لرده ∴ سبلاً فهل تجدى الدموع وتنفع [2]

ومنها أيضا (إقامة الركن ، وإعلان المبانى) فى قوله :

أقام لها ركناً أخو الهدى جامع ∴ بناها له الحسنى فأعلى المبانيا [3]

وفى أخوة الجد فى قوله :

همام بنى للدين مجداً مؤثلاً ∴ وشيد صرحا للحنيفة عاليا [4]

وفى أخوانية اخرى لجده نجد (الساحة الكبرى) فى قوله :

وفى الساحة الكبرى أقيمت منازل ∴ يرى عندها الإكرام والخير والرفد [5]

---

(١) الديوان - ٣٦٧
(٢)الديوان ٣٨٦
(٣) الديوان – ٣٠١
(٤) الديوان - ٣٠٠
(٥)الديوان – ٣٠٧

إلى غير ذلك من ألفاظ مناسبة للسياق ، معبرة عن المعانى المرادة ، موحية بالجو الشعورى للموقف مما يدل على براعة الشاعر فى اختيار اللفظة المتناسقة مع السياق العام للإخوانية ، مما يدل على ارتباط الشاعر بالبيئة وتفاعله معها .

وقد خلت اخوانيات ذوى الرحم من الألفاظ الغريبة ، فكانت لغتها سهلة لينة قريبة ، وإن كان كثير من الإخوانيات لغته قوية جزلة تشعر بالفخامة والضخامة ، وكلها من السهل الممتنع .

العبارات

العبارة تستمد دلالتها فى العمل الأدبى من مجموعة ألفاظ منسقة على نحو معين لتؤدى معنى ذهنياً أو شعورياً وجزء كبير من دلالة الألفاظ لا يظهر إلا فى النسق الذى يعطى اللفظة دلالات فوق الدلالة المعجمية ، إضافة إلى الإيقاع الموسيقى الناشئ من اجتماع الألفاظ بعضها مع بعض ، بما يعطى نغماً خاصاً للعبارة ، متفقاً مع الجو الفكرى والشعورى ، ثم من الصور والظلال التى تشعها الألفاظ متناسقة فى العبارة ، والعبارة عند هاشم كانت الصوت الخارجى للشعور الداخلى ، بحيث تتوقف قوتها على الشعور واشتداد العاطفة ، وترق برقتهما .

فإذا كان الموضوع يتصل بالود والحب والأخوة رقت العاطفة ، وسما الشعور ، وهدأت النفس الشاعرة التى أفعمت بعاطفة الود والمحبة ، فترق العبارة تبعاً لها ، ويسهل التعبير ، وتتهادى الألفاظ فى يسر وسهولة وسلاسة وعذوبة كقوله فى تهنئة ابن عمه وسميه (هاشم أحمد هاشم الرفاعى) :

شقيق النفس "هاشم " قد ∴ سعدت بفرحة العمر

فيومك ضاحك حالٍ ∴ وعيدك باسم الثغر

أضـــــاء فيـــك إطنابـــا ∴ سنى الأضحى سنى الفطر [1]

إلى آخر ما قال فى إخوانية أبناء العمومة .

ومع اتصال الموضوع بالود والحب إلا أن الناحية الشعورية يغلب عليها جو الحزن والكآبة لكونها فى تعزية ، فكانت العبارة مساوقة لهذا الجو الشعورى ، كقوله فى تعزية ابن عمه لوفاة خاله :

رأيت الخطب جل عن العزاء ∴ ففاض الدمع ينطق بالرثاء

ففاض الدمع من حزن بحاراً ∴ كأن عيونا ينبوع ماء

فيا من قد حزنت لفقد خالٍ ∴ تجمل إنه حكم القضاء

ولـيس لكـائن حـى مفـرّ لما حكم الإله من الفناء [2]

وإذا كان النقاد والعرب قد اشترطوا شروطاً لجمال العبارة وأدبيتها [3] ، فإن العبارة عند هاشم قد سلمت من هذه الشروط وتخطتها إلى الجمال الأدبى والإبداع الفنى الذى يبهر المتلقى ، ومرجع ذلك مراعاة أسرار الجمال وعوامل الإبداع الفنى ومنها :

" التقديم "

والعبارة عند هاشم الرفاعى مرتبة حسب ترتيب المعانى فى النفس ، مقدمة الأهم على المهم ، فى كل ما يمر عليها من أحوال تقديماً وتأخيراً وحذفاً ، توكيداً وقصراً ، وما إلى ذلك ، وشعر الاتجاه الإسلامى لا يخرج عن هذا الإطار ، فليس تقديم كلمة على أخرى صناعة لفظية فحسب ، ولكن المعنى المراد هو الذى جعل ترتيب العبارة على نحو معين ضرورة لا مناص منها ، وإلا اختل وانهار البناء .

---

(١)الديوان - ٣٦٧

(٢)الديوان - ٣٩٠

(٣)سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى- ١٠٧-٢٠١

وإذا كان من الجائز أن يتقدم بعض أجزاء العبارة على بعض ، فلا بد أن يكون هذا التقديم مشيراً لمغزى وهدف ، لأن الألفاظ بترتيبها فى النفس تخرج للوجود خاضعة لمنهج نفسى فنى ، فيتقدم ما تجد النفس تقديمه أفضل وأولى ، لأنه المحور الذى يدور حوله الحديث وحده ، فيكون هو المقصود والمراد ، ومن اجله يكون التقديم والتأجير .

ففى مدح جده فى إخوانية له ، يقول :

رجال إذا ما المزن ضنت بمائها ∴ هم القطر كلا بل هم الغيث هاميا

ويقول :

هو العلم والتقوى به الخير والهدى ∴ له الدين والدنيا أنار الدباجيا [1]

فقد قدم الضمير (هم ، وهو) ليفيد اختصاصهم بمعنى الكرم فى الأول ، والشهرة فى الثانى لا يتعداهم لغيرهم .

ويقول فى مدح جده أيضاً :

ألقى إليه الأشراف غاية مجدهم ∴ شهدت له الأضياف أرحب منزل [2]

فتقديم الجارو المجرور – له – يفيد اختصاصه بهذه المعانى بحيث لا تتعداه إلى غيره .

وفى إخوانية أخرى لجده نرى تقديم شبه الجملة (الجارو المجرور – إليك) ليفيد اختصاص الممدوح بذلك لا غيره ، يقول :

إليك سعى الأحباب والصحب يا جد ∴ يحرقهم شوق ويدفعهم وجد

أتتك زرافات تغالب شوقها ∴ وجاء إليك الوفد يتبعه الوفد [3]

---

(١)الديوان - ٣٠١

(٢)الديوان - ٣٠٥

(٣)الديوان - ٣٠٧

وفى نفس الإخوانية نرى تقديم أربع كلمات (ضريحك ، قبرك ، دنياك ، أخراك) جامعاً بين الدنيا والآخرة ، مما يدل على شدة تعلقه بجده ، وانه مناط فخرهم ، وموضع أملهم ، لأنه جمع من الأمانى والقيم والمثل العليا ما يعجز الآخرين ، يقول :

ضريحك مثوى البر والفضل والتقى ∴ وقبرك فيه الزهد والعلم يا جد

ودنياك كانت للأنام هداية ∴ وأخراك فيها مجمع الهدى والرشد [1]

ويقدم شبه الجملة (فيك ولمثلك) مرة أخرى فى قوله :

فإن صغت فيك الشعر درا فإنما ∴ لمثلك يهدى الشعر والشكر والحمد [2]

يفيد اختصاص جده بهذا المدح ،وهو جدير به

ويعتقل أخوه ظلماً وعدواناً ، فيقول مشاركاً له :

له لليأس أسباب ∴ وللتأميل إعذار [3]

فالحالة النفسية التى تلبسته إثر هذه الأحداث ، جعلت لليأس أسباباً ، لعدم صلاح الأحوال وسيرها من سيء إلى أسوأ ، وللتأميل فى إطلاق سراحه أعذار ، فقدم (له) ليشير إلى الحالة النفسية التى وقع تحت سيطرتها .

فمن هنا كان التقديم للاختصاص على أساس منهج فنى نفسى تتضح معالمه بالتأمل والتدبر فيما وراء الألفاظ ، وهذا من بلاغة التقديم وجماله الأدبى .

---

(١)الديوان ـ ٣٠٧

(٢)الديوان ـ ٣٠٨

(٣)الديوان ـ ٢٢٥

" التوكيد "

من وسائل توكيد المعنى وقوة الإثبات القصر بمعنى حبس أمر على أمر بوسائل منها النفى الاستثناء لتصحيح المفاهيم وتأكيد الحقائق الذى هو بصدد إثباتها ، يقول فى إحدى إخوانياته لجده :

ولا خير إلا كان للخير رائدا ∴ ولا جرح إلا كان للجرح أسيا [1]

فلا يوجد خير إلا كان رائداً له ، ولا حرج إلا واساه وطببه وعالجه بطريقته ، وقوة هذه الطريقة تأتى من النفى ثم الإثبات ، تحلية بعد تخلية .

وفى إخوانية أخرى لجده ، يقول :

فلا تنزل العلياء إلا بدارهم ∴ هم القوم عاشوا والزمان لهم عبد[2]

فالعلياء مقصورة عليهم لا تنزل إلا بدارهم .

وفى إخوانية لأخيه يتحدث عن فترة طلب العلم وجدهم فى ذلك ، يقول :

فتلك عهود غرس قد تقضت ∴ وما عرفوا بها إلا الكتابا [3]

فيقصر معرفتهم على الكتاب دون ما سواه .

ومن أساليب التوكيد القصر بلكن كقوله فى إخوانية لأمه :

لكنما الأم المجيدة ترتقى ∴ فى قلبنا عرشا مقيما أرفعا [4]

فهو ينفى أية أفكار سابقة غائمة فى منطقة التردد ، ويستدرك هذا الأمر ، ويقرره بلكن ليعطى للأم منزلها فى نفسه فترقى إلى عرشها وتتربع عليه.

---

(١)الديوان - ٣٠١
(٢)الديوان - ٣٠٨
(٣)الديوان - ٣٣٥
(٤)الديوان - ٣٣٢

وفى إخوانية لوالده يقرر أموراً ، وإن كان خلافها فى وهم الآخرين ، فيقرر فى وفاة والده أنه مهما كان فراقه شديداً على نفسه ، فلا بد من الرضا والتسليم ، لأنه حكم الإله ، يقول :

لكنه حكم الإله وهل له ∴ قل لى بربك من يرد ويدفع [1]

ويقول أيضاً :

لكنها الأقدار هذا دأبها ∴ تغتال من تشاء وتنزع [2]

فهو يتعجب لاغتيال الأقدار والده ، ونزعه من بين أسرته ، وحرمانه من رعايته له ، ثم يستدرك بأن هذا هو دأب الأقدار تفعل ما تشاء .

ويؤكد أن الله يمهل الظالمين ، وقد يتبادر إلى الذهن من امتداد الإمهال أنه وصل إلى الإهمال ، فسيتدرك مؤكداً ذلك المعنى ، نافياً عكسه من الذهن ، فيقول :

إن الإله لممهل لكنه ∴ ما كان يوماً للغوى بمهمل [3]

وفى إخوانية لوالده ، يقول :

قضى عمره مثل الزهور فعيشها ∴ قصير ، ولكن تترك العطر زاكيا [4]

وقد يظن انتهاء حياة والده بموته ، ولكنه يستدرك بأن سيرته الصالحة ، وأعماله الطيبة تركت له أثراً صالحاً وذكراً حسناً بين الناس بعد موته .

---

(١)الديوان - ٣٨٦
(٢)الديوان - ٣٨٧
(٣)الديوان - ٣٠٦
(٤)الديوان - ٣٠١

ومن أساليب التوكيد (العطف ببل) لإثبات ما بعدها ، لأن ما قبلها خلاف مراد الشاعر أولا يكفى للتعبير عما فى نفسه ، يقول فى إخوانية لجده :

رجال إذا ما المزن ضنت بمائها ∴ هم القطر ، بل هم الغيث هاميا[1]

لم يكتف بأن يكونوا قطراً ، فهذا قليل لا يرضاه لهم ، فعطف ببل مضرباً على الأمر السابق ، ليؤكد أنهم هم الغيث الكثير جوداً وعطاءً .

ومن أساليب التوكيد القصر " بإنما " كقوله :

فإن صغت فيك الشعر درا ∴ فإنما لمثلك يهدى الشعر والشكر والحمد[2]

فقد قصر إهداء الشعر لمثله فهو يستحقه ، لا غيره .

ومن أساليب التوكيد وتقوية المعانى (التكرار) سواء أكان لفظياً أم معنوياً .

ففى إخوانية لأمه فى عيد الأم ، يقول لها معترفاً بأفضالها :

أمى غرست الحب فى أحنائنا ∴ وملأت بالمثل الرفيعة أضلعا

أمى وقد علمت كل حميدة ∴ وهدى شربناه غذاء مرضعا

أمى العزيزة أنت بيت قصيدنا ∴ إن نحن أنشدناه زنت المطلعا[3]

فتكرار لفظ (أمى) ليوضح مدى تعلقه بها ، وليظهر فضلها ، ويعترف بأياديها عليه وعلى إخوانه ومرة أخرى يوضح مدى ارتباطها بأولادها فى حالى الفرح والحزن ، فيقول :

فإذا فرحنا تظهرين بشاشة ∴ وإذا مرضنا تذرفين الأدمعا[4]

---

(١)الديوان - ٣٠٠
(٢)الديوان - ٣٠٨
(٣)الديوان - ٣٣٢
(٤)الديوان - ٣٣٢

فإذا وإذا وضحت موقفها فى الحالين من ارتباط حالها بحال ولدها فرحاً وحزناً .

وفى إخوانية لجده يقول فى آخرها مخاطباً القصر وما شهده من حياة الملك :

يا قصر هل أغناه ما قد شمته ∴ وشهدته من كل فعل مخجل

يا قصر ما كان الغداة بمانع ∴ أيدى العدالة كل باب مقفل[1]

فالقصر بما أحاط به من جند وحرس أطواقاً بعد أطواق ، لم يمنع الملك مما نزل به من ذل وهوان وما دار فى داخله من شهوات ونزوات ، لم يضمن هذا كله لصاحبه شيئاً ، فوجه حديثه للقصر ، لعله يحظى بإجابة تشفى الغليل ، لتظهر لنا العبرة فى خلو القصر .

وفى إخوانية لابن عمه يهنئه بزفافه يوضح أثر الفرحة وعمومها فيكرر الإضاءة والنور الذى يدل على أثر الفرحة فى النفس التى ترى الكون أضواءً ، وتراه عيداً ككل الأعياد ، يقول :

أضاء فيك إطنابا ∴ سنى الأضحى سنى الفطر

أضاء على جوانبه ∴ فأمسك واضح العذر [2]

ويصف صفاء القلوب والألفة الجامعة بين الأحبة ، فيقول :

لا البغض شق إلى النفوس سبيله ∴ كلا ولا شمل هناك مفرق [3]

فلا البغض عرف طريقه إليهم ، ولا الشمل مفرق ، فالتكرار أكد المعنى ونفى أسباب الخلاف .

---

(١)الديوان - ٣٠٦

(٢)الديوان - ٣٦٧

(٣)الديوان - ٢٩٨

ويصف أخلاق جده ومن حوله فى إخوانية له ، فيلح فى استقصاء أحوالهم، يقول :

من الباذلين الخير فى ساحه ∴ ومن يدهم فى كل نائبة برد

ومن صدقوا الله وعداً وموثقاً ∴ وكل كريم عنده بصدق الوعد

ومن لبسوا برد الحنفية طاهراً ∴ فزانوه إجلالاً وزانهم البرد [1]

فكرر (ومن) أربع مرات معدداً صفاتهم الطبية ومعقبا عليها بما يزيدها قوة وجلالاً.

وفى إخوانية يصف أيام رعاية أخيه له ولأبناء قريته / يقول :

وإن العيش يحلو فى رفاق ∴ إذا خافوا لراعيهم حسابا

فلا يخشاه فى شئ برئ ∴ ولا يألوا أخاذنب عقابا [2]

فلا ولا معاً أكدتا انضباط المعاملة ، وحسن العشرة والرعاية ، نافياً بهما المعانى غير المرادة وبنفيهما يثبت العكس وهو المراد .

وهكذا استخدم أدوات التوكيد لتقوية معانيه وتثبيتها فى النفس فى أسلوب أدبى جميل حافظ فيه على قوة العبارة ونقائها وصفائها .

" الذكر والحذف "

من أساليب الصياغة الأدبية للعبارة ، يراعى فيه الحالات النفسية وطرق الأداء للمعانى فيمدح جده فى إخوانية له ، قائلاً :

همام بنى للدين مجداً مؤثلاً ∴ وشيد صرحاً للحنفية عاليا [3]

---

(١)الديوان - ٣٠٨

(٢)الديوان - ٣٠٨

(٣)الديوان - ٣٠٨

اى هو همام ، وحذف المسند إليه للعلم به ، ولأنه علم مشهور لا يحتاج إلى ذكر .

ويقول فى إخوانية لوالده :

أبتاه شعرى لست أملك غيره ∴ ماذا عسى غير الرثاء ساصنع [1]

أى : يا أبتاه ، هذا شعرى ، فقد حذف أداة النداء لقربه من نفسه ، فلا يحتاج إلى نداء ، وحذف المسند إليه أى وهذا شعرى لضيق المقام .

وفى إخوانية لجده يذكر المسند إليه ليفيد اختصاصه بما أسند إليه من مكارم وفضائل ، يقول :

هم نبع كل كريمة وأساسها ∴ وبفضلهم غصن المروءة مورق

وبهم يسير الهدى وثاب الخطى ∴ ويخر شيطان الضلال ويصعق

هم سرحه الهدى بورك غرسها ∴ إن جف أصل قام فرع معرق[2]

فقد ذكر المسند إليه فى كل حالة مما سبق ليستحضر فى الذهن سيرتهم وجميل صنعهم ، وأنهم هم الفاعلين لهذه المكارم والأفضال لا غيرهم .

" الاستفهام "

يكون لطلب الفهم على الحقيقة ، ولكنه كثيراً ما يخرج على المعنى الحقيقى لمعان مجازية ، تفهم من السياق كالإنكار والتعجب والتكثير ، وما إلى ذلك من أغراض الاستفهام المجازية .

يقول الشاعر فى إخوانية لوالده :

أمن المصاب وعظمه تتوجع؟ ∴ والعين منك سيولها لا تقطع

---

(١)الديوان - ٣٨٦

(٢)الديوان - ٢٩٧

ذهب الأمام فما رأيت لرده ∴ سبلاً فهل تجدى الدموع وتنفع؟

لكنه حكم الإله وهل له ∴ قل لى بربك من يردو يدفع؟

كيف الرحيل عن الديار وأهلها؟ ∴ والكل بات من الأسى يتوجع؟

وفتاك كيف تركته ولمن إذا ∴ يشكو المتاعب أو إلى من يفزع؟

أبتاه شعرى لست أملك غيره ∴ ماذا عسى غير الرثاء سأصنع؟ (١)

فقد صاغ عاطفته الملتاعة من خلال هذه الاستفهامات المتعددة تحمل الدفقات الشعورية متوالية متتابعة ، حتى وصل إلينا ما بنفسه من حرارة متقده وحزن أليم على رحيل والده ، فيبدأ بالاستفهام التعجبى لتوجعه لعظم المصاب ، والدموع سيول لا تنقطع ، ثم يتساءل : هل تجدى الدموع نفعاً فى رد والده ؟ هو يعلم أنها لا تجدى ، ولكنه من فرط ألمه وشدة مصابة يتساءل ، وتساؤل آخر وهو : هل هناك من يرد أو يدفع حكم الله بالموت ؟ ثم يسائل الفقيد متحسراً كيف الرحيل والكل يتوجع ؟ وكيف رحل وترك ولده ؟ ولمن يشكو الولد متاعبه وآلامه ؟ أسئلة لا إجابة لها إلا شدة فجيعته فى فقد والده ، وأثر ذلك فى ترك فراغ كبير .

وعند قبر والده وجده يتساءل : كم جاهدا فى الله حق جهاده ؟ وكم أحرزا من رفعة لا تلحق قاصداً التكثير ، فكثيراً ما جاهدا ، وكثيراً ما أحرزا من رفعة لا يبلغ شأوَها أحد ، ويقول :

كم جاهدا فى الله حق جهاده ∴ كم أحرزا من رفعة لا تلحق (٢)

وفى إخوانية لجده ، يقول :

أأخفى وفى الإخفاء نار ولوعة ∴ وأكتم والكتمان يدمى فؤاديا (٣)

---

(١)الديوان - ٣٨٦

(٢)الديوان - ٢٩٨

(٣)الديوان - ٣٠٠

يتساءل : هل يخفى نار الشوق ولواعج الصبابة ؟ ولا شك ان الإخفاء والكتمان سيكون له رد فعل نفسى على قلبه ، فهو لا يستطيع الإخفاء ، ولكنه يتساءل من شدة معاناته .

وفى إخوانية أخرى لجده ، يقول :

وإلام تستجدى الظلام خيالها ∴ حتى يبدده صباح منجلى[1]

والمقصود اللوم والتوبيخ لشدة تعلقه بهاجرته ، وشدة شوقه إلى رؤية خيالها فى الظلام .

ومرة أخرى يتساءل :

ماذا لقيت من الهوى ونعيمه ∴ نار وحلو مذاقه كالحنظل؟[2]

فيستفهم : ماذا لقى من نعيم الهوى ؟ فهو بين نار تحرق ، وحلاوة كطعم الحنظل ، فهل لقى شيئاً من نعيمه إلا الشقاء .

وفى إخوانية أخرى لجده يسائل القصر (قصر الملك فاروق) عنه : هل نفعته شيئاً لذاته ونزواته ؟ يقول :

يا قصر هل أغناه ما قد شمته ∴ وشهدته من كل فعل مخجل [3]

والإجابة بالنفى قطعاً .

إلى آخر ما هناك من شواهد كثيرة لهذا اللون من ألوان التعبير الذى يحيى الأسلوب ، ويذهب الملل ، وينبه الذهن ، ويقطع الاستعلاء ، ولكنه يخرج عن المعنى الحقيقى إلى معان مجازية تفهم من السياق .

ففى إخوانية لوالده ، يقول :

---

(١)الديوان - ٣٠٣

(٢)الديوان - ٣٠٣

(٣)الديوان - ٣٠٦

- الأمر -

الأمر فى حقيقته طلب فعل كف على جهة الاستعلاء ، ولكنه يخرج عن المعنى الحقيقى إلى معان مجازية تفهم من السياق

فاذهب عليك من الإله تحية ∴ ما بدد الظلماء فجر يسطع[1]

مسلماً بقضاء لأنه لا بد منه ، ويحييه مع طلوع كل فجر .

وفى إخوانية لجده يستخدم فعل الأمر كثيراً من شدة لوعته ، يحرك به الأسلوب ويحيى به الموقف ، فيقول :

قف واحملن فتى أضربه النوى ∴ يبغى المسير إلى الحبيب ويعشق

وأنخ ركابك إن وصلت بساحة ∴ من نورها وجه الفضائل مشرق

أسرع فديتك كى نلم بدارهم ∴ ونرى وجوها بالجلالة تنطق

واجهر بصوتك إن وصلت ونادهم ∴ من بالنداء من الأحبة اخلق

واخشع مليا بالضريح مسلماً ∴ والرأس منك من المهابة مطرق [2]

فأفعال الأمر تتوالى (قف ، واحملن ، وأنخ ، وأسرع ، اجهر ، نادهم ، اخشع) وهى تصور شدة الشوق إلى لقاء الحبة ، فطلب الوقوف والحمل وإناخة الركاب ، وسرعة الحركة للقائهم والجهر والنداء ، والخشوع كحالة نفسية أمام هؤلاء الأحبة ، فهم جديرون بكل تبجيل واحترام ، فالصورة متكاملة من حركة وصوت وحالات نفسية ، تتكامل لترسم

---

(١)الديوان - ٣٨٧

(٢)الديوان – ٢٩٧ ، ٢٩٨

صورة لهؤلاء المشتاقين إلى لقاء الأحبة وحركتهم الدائبة المعبرة عن شوق دفين ، وعمل دائب للقائهم .

وفى إخوانية أخرى ، يقول :

دع الوجد واترك ذكر العشق جانبا ∴ وكف عن التشبيب ، واسل الغوانيا

وسر بالقوافى نحو قوم أعزة ∴ ومجد بذكر الأكرمين القوافيا [1]

فأفعال الأمر هنا كثيرة (دع ، اترك ، كف ، اسل ، سر، مجد) إلى آخره، فهنا نرى حركة الترك لكل ما يبعد عن الوصول إلى الأحبة (دع، اترك ، كف ، اسل) ونرى حركة حثيثة أخرى للوصول إلى الأحبة الكرام وتبجيلهم (سر ، مجد) إلى آخره من شده شوقه إلى لقائهم ، كذلك وحركتهم الدائبة لتحقيق ذلك الأمل .

وفى إخوانية أخرى لجده ، يقول :

فاقصد إلى بيت العلا من هاشم ∴ وبباب أرباب الندى فترجل [2]

(اقصد وترجل) مقصودها التبجيل والتعظيم لهؤلاء الأحبة أهل العلا من هاشم وما إلى ذلك .

" النداء "

طلب الإقبال بحرف من حروف النداء ، ولكن فى السياق له أغراض متعددة ، تتضح من خلال المقام .

---

(١)الديوان – ٣٠٠

(٢)الديوان – ٣٠٤

فيقول فى إخوانية لوالده :

أبتـاه شـعري لسـت أملـك غيـره ماذا عسى غير الرثاء ساصنع[1]

ناداه مع بعده عنه ، فهو قريب من نفسه ، متحسراً علي فقده ، ولذا حذف أداة النداء فالمقام يقتضى ذلك ، وفى إخوانية لجده ، يقول :

يا راكب الوجناء قدحت الخطـا في إثر ركب الدجى محتمـــل

يا نضر الرحمن قبرا قد ثـــوى في جوفه للبر أكبر مـــــوئل

نادى مناديهم بباب خيامهـــــم يا طالبا للزاد نيلاً أقـــــبل

فيكثر النداء (يا راكب الناقة الشديدة ، يا نضر الرحمن) فينادى المتأخر السابق راكب الناقة القوية المسرعة من شدة شوقهما إلي إلقاء الأحبة ، ثم ينادى داعياً لهم بنضرة الوجوه من الرحمن ، فلا يملك مع شدة شوقه إلا الدعاء لهما ، ثم المنادى : (يا طالبا للزاد نيلاً أقبل) للدعوة إلي الزاد دليل على الكرم الفياض ، ومرة أخرى يتهكم بالفرزدق فيناديه ساخراً منه :

قومى أولئك يافرز دق فالقنى إذ ما فخرت على جرير بنهشل

فالنداء للسخرية والتهكم لأنه افتخر بما لا يستحق الافتخار به بجانب أهله أهل الكرم والعلا .

ثم يشكو إلى الله حال مصر ، وقد تحكم فيها الطغاة احتلالاً وقصراً والحكومات الفاسدة ، فيقول :

يا قصر ما كان الغداة بما نـــع ايدى العدالة كل باب مقفـــل

يا قصر هل أغناه ما قد شمتـــه وشهدته من كل فعل مخجـــل

يا رب ماضينا تولى وانقضـى بعهوده ندعوك للمستقـــبل[2]

فينادى القصر من شدة حسرته على ما جرى لمصر وجعلها نهباً للأحداث .

---

(١) الديوان – ٣٨٦

(٢) الديوان – ٣٠٦

ثم ينادى الله عز وجل داعياً أن يلطف بمصر في مستقبلها ، فقد مر الماضى بما يحمل.

وفي إخوانية أخرى لجده ، يقول :

يا راكباً وأراه ولى وجهه ... شطر الأحبة إننى لمورق

يا قوم إنى قد وقفت ببابكم ... والباب دونى لا أظن سيغلق[1]

فينادى قاصدى الأحبة انه مورق من شدة حبه ووجده ، ويريد أن يلقى الأحبة كالركبان ، وينادى قومه مرة أخرى ألا يغلقوا الباب دونه على طريقة المتصوفة في انه لا يدخل أحد إلا من بابهم ، وفي إخوانية أخيرة لجده ، يقول :

وفى الأرض منك النبل يا جد والسنا ... وغيث رفيع القدر ما انتظم اللحد

فيا فرع أسمى دوحة نبوية ... وفخر الألي في الله شفهم السهد

ويا غصن أزكى سرحة هاشمية ... إلى كل ركن في المكارم تمتد

ويا أبتا إنا على العهد لم نزل ... مقيمين مذ ألوى بصارمك الغد

فيكثر النداء للتعظيم ورفعة القدر والمكانة ، فيقول : (ياجد، يا فرع أسمى دوحة ، يا غصن أذكى سرحة ، يا أبتا) وتدل على تعلقه بجده ، فهو شرف القبيلة ، وأس رفعتها ، ولذلك توجه إليه بالنداء والوصف بالصفات الطبية ، فجعله معقلاً للفضائل .

إلى غير ذلك من الأمثلة التي تدل فيما تدل على جمال التعبير وروعة الصياغة والإبداع الفنى الذي يملك القلوب والأسماع .

أسلوب الإخوانيات

وتطالعنا في إخوانيات ذوى الرحم بعض الإخوانيات التي تتسم بالقوة والجزالة ومتانة التركيب وروعة الأسلوب وفصاحة الألفاظ، وإحكام القافية ، مستخدما لغة التراث الشعرى القديم التي ترسبت في

---

(١) الديوان – ٢٩٨،٢٩٧

فكره ووجدانه من قراءاته الأولى في الأدب العربي القديم ، فهو يتمثل أسلوب البدوى وبيانه، يقول في إخوانية لجده :

وسهولة تركيب ، وعذوبة بيان ، مع

بات الفؤاد صبابة يتحرق ... وبه إلى دار الحبيب تشوق

نأت الأحبة فالديار بعيدة ... والقلب من نار الجوى يتمزق

عاهدتهم عهداً وإني إذ نأوا ... باق عليه ولن يحل الموثق

إلى آخر ما قال في إخوانياته لجده .

كما تطالعنا في بعض الإخوانيات صور تذوب رقة ألفاظ ، وسلاسة أسلوب فصاحتها وصحتها اللغوية ، مغترفاً من لغة الحياة المعاصرة مستوى راقياً ، معبراً عن نفسه بلغته ، كقوله في إخوانية لوالدته :

عيد الأمومة والربيع تجمعا ... عيدان قد طلعا على الدنيا معا

كسيا الوجود محبة ونضارة ... لله ما أبهى الوجود وأبداعا

هذا يسطر للحنان صحائفا ... بيضاً وذاك العطر فيه تضوعا[1]

إلى آخر ما قال في إخوانية لوالدته ، فنرى أن ألفاظ إخوانيات ذوى الرحم تابعة للعاطفة ومتأثرة بالموضوع الشعرى ، ومتناسقة معه ، فتكون جزلة فخمة رصينة متينة قوية الإيقاع ، واضحة النبرة ، تتميز بالاستطالة ، ونكثر فيها الحروف القوية التى تناسب المعانى القوية الفخمة الضخمة ، بمالها من قوة الإيقاع وضخامة الدلالة ما يناسب المقام.

ومهما يمكن من أمر فإن ألفاظ الإخوانيات اتسمت بطابع هام اللين والسهولة والرقة والسلاسة ، والكلمات العذبة ، ذوات الإيقاع الهادي تابعة للعاطفة في ذلك ، ومناسبة لموضوع الإخوانيات كما في إخوانيات ذوى الرحم التي تقوم على الارتباط بعلاقات المودة والمحبة بالإضافة إلي روابط النسب والقرابة ، مما يشيع جواً اجتماعياً دافئاً من خلال الأسلوب .

---

(١) الديوان – ٣٣٢

وقد تتراوح بين الأسلوبين حسب موضوع الإخوانية ، وما يقتضيه المقام خاصة في إخوانيات الجد التي نحت المنحى القديم ، وتمثل فيها أسلوب البدوى وبيانه .

الموسيقا والخيال

الموسيقا:

عنصر هام من عناصر الشعر ، له تأثيره في النفس الإنسانية ، وأهم العناصر التي تميزه عن النثر ، لأنه يؤثر في توصيل الأفكار والمشاعر إلي النفس البشرية في هالة من الأصوات الموسيقية التي تحبها النفس ،وتتفتح لها ، وتجد فيها من المتعة ما لا يوجد في الكلام المجرد منها ، حتي لقد قيل : " إن الشعر موسيقا ذات أفكار " [١] وهى مبالغة تدل على أثر الموسيقا في الشعر " فالموسيقا تسبغ على الشعر جواً مشبعاً بالفتون ، وبالأخص إذا جاءت أوزان القريض التي تنهض بهذه الألفاظ ملائمة للون العاطفة التي يحاول الشاعر بثها ، فكلما تم التجاوب بينهما زادت فتونا ، وبدون الموسيقا يستحيل أن يكون الشعر شعراً ، وإن اقتران الألفاظ بالنظم في شعر كافة الأمم لدليل في ذاته على هذه المنزلة التي تحتلها الموسيقا "[٢] والشعر إن لم يهزنا ويثرنا بموسيقاه يفقد أهم عناصره ، ولا يعد شعراً ، بل يكون نظماً أو نثراً موزوناً أو ما إلي ذلك ، واشترط المحدثون في الكلام ليكون شعراً أن تتحقق فيه أركان ثلاثة : أولها : أن معانيه تصب في صور خيالية ، ثانيها : أن تتجانس الألفاظ مع المعاني ، وثالثها : الجرس الموسيقى في اللفظ الشعري ،لأن بعض المحدثين قد أكدوا أن هذه هي أخص مزايا لغة الشعر [٣] ، وإن كانت هذه أركان الشعر كما ارتآها المحدثون ،فإنهم يرون أن الوزن والقافية خاصية واضحة لا غموض فيها ولا إبهام، ويرونها تزيد من انتباهنا ، وتضيف على الكلمات حياة فوق حياتها وتجعلنا نحس بمعانيه كأنها تمثل أمام أعيننا تمثيلاً عملياً وواقعياً ، كما أنها تهب الكلام مظهراً من مظاهر العظمة والجلال ، وتجعله مصقولاً ومهذباً ، تصل معانيه إلي القلب بمجرد سماعه ، وكل ذلك مما يثير

---

(١) البلاغة د/ عز الدين إسماعيل – ٤٧.
(٢) الشعر والفنون الجميلة / إبراهيم العريض – ٢٢ بتصرف
(٣) التوجيه الأدبي لطه حسين – ١٩٣ط ٤ – ١٩٤٠ م .

الرغبة فينا في قراءته وإنشاده ، وترديد هذا الإنشاد مراراً وتكراراً ، فليس الشعر في الحقيقة إلا كلاماً موسيقياً نفعل لموسيقاه ، وتتأثر به القلوب [1] ، فإذا سيطر النغم الشعرى على السامع وجدنا له انفعالا ... وصحب هذا الانفعال النفسى هزات جسمانية معبرة ومنتظمة نلحظها في المنشد وسامعيه معاً [2] .

وللشعر خصائص موسيقية تأتيه من أوزانه وقوافية التي تسبب نوعاً من الوحدة الموسيقية في القصيدة ،كما تأتية من بعض الألوان البديعية ،كالجناس وحسن التقسيم والتصريع وغيرها من ألوان البديع ، وإلي جانب هذه الموسيقا الخارجية أو الظاهرة توجد موسيقا داخلية أو خفية ، تنبع من اختيار الشاعر لكلماته وما بينها من تلاوءم في الحروف والحركات وكأن للشاعر أذناً داخلية وراء أذنه الظاهرة ، تسمع كل شكلة، وكالحرف وحركة بوضح تام ، وبهذه الموسيقا يتفاضل الشعراء"[3] وتعلو قيمة الشعر بمقدار ما فيه من النغم ، وما يحمله من موسيقا ، والعكس بالعكس ، وإذا كانت ألوان الشعر بحاجة إلي الموسيقا فليس ذلك بدرجة واحدة ، فإن الشعر الوجداني أشد احتياجاً لأنه تعبير عن العاطفة الشخصية ،أما الشعر التعليمي فلا يظهر فيه هذا المعنى ، وباقى الألوان الشعرية تختلف من لون لآخر حسب حاجتها للموسيقا ، وتتنوع هذه الموسيقا بتنوع موضوعات الشعر الوجداني ، وتتفاوت الأصوات الموسيقية في قوتها ونغماتها وصفاتها وانخفاضها وارتفاعها، فالموسيقا الشعرية يجب أن تساير موضوع القصيدة ، وتتلاءم مع التجربة الشعرية ، يقول سبنسر : " إن خير الموسيقا ما تتمسى مع الأفكار ، وتتساوق المعاني ، وتتجاوب نغماتها ونبراتها مع حالات النفس"[4].

وللشعر نواح عدة للجمال أسرعها إلي نفوسنا ما فيه من جرس الألفاظ وانسجام في توالى المقاطع ، وتردد بعضها بعد مقدار معين منها، وكل هذا هو ما نسميه بموسيقا الشعر ، ويستمتع الصغار والكبار بما في الشعر من موسيقا ، ويدرك الطفل ما فيه من جمال الجرس ، قبل

---

(١) موسيقى الشعر د /إبراهيم أنيس – ١٦ بتصرف .
(٢) السابق ١٤ بتصرف
(٣) في النقد الأدبي / شوقى ضيف – ٩٧.
(٤) موسيقى الشعر د / إبراهيم أنيس -٧ .

أن يدرك ما فيه من جمال الأخلية والصور "[1] ولعل السر في علوق الشعر بالذاكرة دون النثر ، هو ما في الشعر من انسجام المقاطع وتواليها، بحيث تخضع لنظام خاص في هذا التوالي ، ومتى دربت الأذن على هذا النظام الخاص ألفته وتوقعته أثناء سماعها، والنفس تألف المعاد والمكرر – ولعل ذلك سر تكرار الإعلانات التجارية – ومثل الوزن في هذا مثل كل شئ منظم التركيب منسجم الأجزاء ، ويدرك المرء بسهولة سر توالي أجزائه وتكرارها خيراً مما يمكن أن يدرك المضطرب الخالي من النظام والانسجام [2] فهي الإيقاع والنغم الناتجان من جرس الألفاظ والعبارات ، وانسجام توالي المقاطع وتردد بعضها والصور والظلال التي يشعها اللفظ والعبارة كأثر لتكامل العناصر الشعرية المختلفة[3]

وهذه الموسيقا تعتمد على ظواهر في الصياغة وحركة الوزن الإيقاف والقافية ، وهو ما يسمي بالموسيقا الخارجية ،كما تعتمد على لون آخر من الإيقاع الخفى الذي يأتي من مجموعة الدلالات والإيحاءات الفكرية والشعورية التي تتعاون عليها الألفاظ ونسق التعبير والخواطر والصور، ويسمى ذلك بالموسيقا الداخلية ما بين ظاهرة وخفية . وباستقراء إخوانيات ذوى الرحم عند هاشم نرى اهتمامة البالغ بالموسيقا ، والتزامه منهج القدماء في المحافظة على العروض الخليلي وعمودية القصيدة في الوزن والقافية ، ولم يكن ذلك ضعفا منه ،بل هو علامة الفحولة الشعرية ، ولا جموداً على القديم أمام الدعوات المعاصرة ، بل هو التزام فقد حدد موقفه من هذه الدعوات التي لا طائل تحتها مخاطباً الداعين إلى تحطيم عمود الشعر، وتحطيم الوحدة الموسيقية للقصيدة من الوزن والقافية ، فيقول :

أيها الهاتفون بالشعر حراً ... ولكم به دعوة طنانه

قد أتيتم له بنهج غريب ... يفرض اليوم بينكم سلطانه

وتشدقتموا بزخرف قول ... عن مفاهيم نمقتها الرطانه

---

(١) بين الأدب والنقد د / خفاجي نايل ٣٣ بتصرف .

(٢) حولية اللغة العربية جرجا العدد ٢- ٢١٨

(٢) موسيقى الشعر – ١٣ بتصرف.

ليس شعراً وإنما هو شئ فوق الشعر رتبة ومكانه
إنما الشعر ما تدفق عذباً في بناء فأحكموا بنيانه
أسمعونا إذا استطعتم قريضاً لا خيالات جالس في حانه
فإذا شقت القيود عليكم فدعوه لمن يصوغ جمانه
كل نهج أتى ليستر عجزاً نقيه وتزدرى بهتانه
رب إني على القديم مقيم وأعد الخلاص منه خيانه[1]

وكان يرى أن التمسك بالوزن والقافية لا يحول بين الشاعر وما يريد أن يضمنه قصيدته من خلجات نفسيه وأفكار ، ويرقب بعين الحذر ماجد على الساحة ، ويحدد موقفه منه بوضوح .

فالأجيال التي على (شرشر وفلفل) لا يرجى منها خير للعروبة والإسلام ، فلابد من عودة قوية للتراث استظهاراً وهضماً وفهما حتى يجرى على الألسنة أدباً مصفي ، فكل الشعراء الذين يعدون في هذا المجال ويشار إليهم بالبنان ننظر إلى أساس تعليمهم وثقافتهم فترى عودة حميدة إلى التراث،تنقص عبيد التحرر الكاذب ، للوقوف على الأرض التي وقف عليها نظراؤهم من شعراء القصيدة وزناً وقافية في العروض الخليلي ، مع تطويعه لها لحمل قضايا العصر ومتطلباته ، حرصه على التزام أوزان الخليل في إخوانيات ذوى الرحم ، وباستقراء نتاجه في ذلك وجدنا له تسع قصائد منها أربع على بحر الكامل ، وقصيدتان على بحر الطويل ، وقصيدة على بحر الوافر ، وقصيدتان على مجزوء الهزج .

وبالنظر في هذه البحور ونسبها يتضح أنه قد آثر البحور التقليدية القديمة ، وبخاصة البحور الطويلة ، لأنه وجد فيها فرصة للتفصيل والتحليل، وعزف على الأوتار التي عزف عليها القدماء والمحافظون ، فلم يخرج عن دائرة البحور التي حددها الخليل حتى فيما حاول فيه التخفيف في الوزان والقوافي كانت كلها من أوزان الخليل المجزوء ، بعكس من خرجوا على الأوزان العروضية فقد تخففوا منها إلى حد

---

(١) الديوان –١١٧ ، ١١٨ .

الترك ، والحق أن هاشم امتلك موهبة موسيقية بارعة جعلته يعني بالموسيقا في اختيار الأوزان المناسبة لموضوعاته ، فقد نظم إخوانيات ذوى الرحم على أربعة أبحر من بحور الخليل ، منوعاً أوزانه ومستغلاً لها استغلال لدرجة أن يظن الملتقى أو الدراس لأول وهلة ، أن هذا الوزن مختص بهذا الغرض ، من حسن استخدامه له باستغلال طاقته الموسيقية ، ولا شك في أن العلاقة منفكة بين الأغراض الشعرية والبحور ، فليس هناك قاعدة ثابتة في هذا المجال ، فكل الأغراض قيلت في كل الأوزان والبحور ، ولا يختص بحر بغرض ، وكل المحاولات التي بذلت في هذا الصدد لا تعدو أن تكون وجهات نظر قابلة للنقاش .

وقد أشار إليها القدماء كابن طباطبا ، فقال :" إن الشاعر إذا أراد قصيدة مخض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه ، والقوافى التي توافقه في الوزن الذي يسلس له القول عليه " [١] ، والمرزوقى في حديثه عن عمود الشعر أشار إلى التحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن [٢] ، وكذلك فعل أبو هلال العسكري حين اشترط لعمل الشعر أن تطلب لمعاينه وزناً يتأتى إيرادها فيه [٣] ، وحاول المحدثون النظر في هذه المسألة ، فلم يربطوا بين الوزن والأغراض ، ولكنهم ربطوا بين الحالة النفسية والإيقاع [٤] ، وربط آخرون بين الوزن ودرجة العاطفة[٥] وربط آخرون بين موسيقى الشعر ومعناها [٦] ، وموجز هذا كله أن يحسن الشاعر اختيار الوزن لموضوعه ، وأن يستغل الإمكانات الصوتية للوزن بما يحمله من ألفاظ وعبارات لها وقع معين ، يتناسب وموضوعه ، بحيث في هالة موسيقية ، تتناسب ومعناه ، مؤثرة في نفس المتلقين ، وهذه إحدى نواحي " الأدبية " في كل عمل أدبي .

القافية

احتلت القافية مكاناً هاماً في الشعر العربي ، فهي إحدى عناصر الموسيقا في الشعر ، ومن أهميتها أن القصيدة تنسب إلى أشهر حروفها

---

(١) عيار الشاعر لابن طباطبا- ٥ .
(٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي -٩ .
(٣) الصناعتين لأبي هلال العسكري – ١٣٩ .
(٤) الأسس الجمالية في النقد العربي د/ عز الدين إسماعيل – ٣٧٥ .
(٥) العشر الجاهلي / محمد النويهى – ٦١/١ .
(٦) موسيقى الشعر / شكري عياد – ١٣٣ ، ١٣٤ .

وهو الروي ، وهى مقاطع صوتية حبلى بالغنم ، ممتلئة بأصداء متواصلة الرنين والتلحين ، يفعل جيدها في العواطف فعلاً طويل البقاء متمادي الأثر ، فالأذن تتلقى كتلاً من المقاطع الصوتية تطول وتقصر ، فإذا ترددت في أواخر هذه الكتل الصوتية مقاطع صوتية بعينها شعرنا بسهولة ترديدها ، وشعرنا بغبطة وسرور حين سماعها ، وبعث هذا فينا الرضا والاطمئنان إليها ، وهنا نلحظ سر حبنا للكلام المقفى " [1] ، وهى بمنزلة الفواصل الموسيقية ، يتوقع السامع ترددها ، ويستمع بهذا التردد، الذي يطرق الآذان في فترات منتظمة ، وبعد عدد ثابت من التفعيلات .

ومن هذا فلا يخفى ما للقافية من سحر وجاذبية ، ومن جمال وانسجام لدى المتلقي ، وهى التي تهيئ الجو النفسي للألفاظ والمعاني ، بما لها من ظلال وإيحاءات " فالقافية شريكة الوزن في الاختصاص بالشعر ، ولا يسمى شعراً حتى يكون له وزن وقافية[2]، ولما للقافية من الأهمية والمكانة في علم الموسيقا والشعر آثرنا أن نخصها باستقراء يوضح إلى أى مدى استخدام الشاعر في إخوانيات ذوى الرحم حروفاً بعينها ، واجتنب حروفاً أخرى .

وعند الاستقراء وجدنا أن قوافي إخوانيات ذوى الرحم كان أكثرها في المرتبة الأولى " الراء " قصيدتان ، ثم قصيدة على كل حرف من الحروف التالية : القاف والياء واللام والدال والهاء والهمزة والعين ، وهى من أكثر القوافي شيوعاً ، وتجنب القوافي النفر والوحشية، ومعظم قوافية من القوافي الذلل والتي أكثر الشعر القديم من استعمالها ، ومن " أحلاها دوراناً على الألسنة ، وذلك لسهولة مخارجها، وكثرة أصولها في الكلام من غير إسراف " [3]،فاتسمت معظم قوافي الشعر بالتمكن والاتساق والموسيقية الفذة ، وابتعد عن القوافي النفر مثل الزاي والصاد والضاد والطاء والواو ، وهذا مما يدل على سعة ثقافته الأدبية ، وإدراكه لمعالم الجمال الأدبي ، مما جعل قوافيه جميلة الجرس لذيذة النغم ، فقد أشار إلى ذلك أحد النقاد قائلا : " هناك حروف تصلح للروي فتكون جميلة الجرس لذيذة النغم سهلة التداول ، وبخاصة إذا كانت مطلقة ، ومن ذلك الهمزة والباء والدال

---

(١) موسيقى الشعر د / إبراهيم أنيس ـ ١١ .
(٢)العمدة لابن رشيق ــ ١٢٩/١ .
(٣) موسيقى الشعر د/ إبراهيم أنيس ـ ٢٤٨.

والراء والعين واللام ، بخلاف نحو التاء والثاء والذال والشين والضاد والغين ، فإنها ثقيلة غربية الكلمات "[1] ، وبانتقاله لقوافيه حقق لها مزيداً من المواءمة بين الأبيات وأواخرها ، فسار هاشم في إخوانيات مسيرة الشعراء القدامى ، فأكثر من استخدام القوافي الزلل مما زاد في رصيده الموسيقى ، وزاد قبولاً في أسماع المتلقين ، وذلك لاجتنا به الحروف التي لا تستسغها الأذان ، ولا تطرب لسماعها ، كالخمسة عشر حرفاً التي لم يتخذها روياً من القوافي النفر والحوش ، فقد قيل : " واعلم أنه يجب على الناظم أو الناثر أن يتجنبا ما يضيق به مجال الكلام في بعض الحروف ، كالخاء والشين والصاد والطاء والظاء والغين ، فإن في الحروف الباقية لمندوحة عن استعمال ما لا يحسن من هذه الأحرف المشار إليها " [2] فتحقق كل هذا في قوافيه، مما يدل على التمكن وقوة الشاعرية والمقدرة الفنية .

التجديد في الأوزان والقوافي

التزم هاشم في إخوانياته بالعروض الخليلي في أوزانه وقوافيه كما وضحنا ، وحاول التوزيع والنظم على الأوزان الخفيفة ناظماً على مجزوء الهزج ، ومن هنا وجد هاشم مندوحة في التجديد والتوزيع في الوزن والقافية منوّعاً بين البحور الطويلة وبين البحور القصيرة المجزوءة .

الموسيقا الداخلية

وبجانب هذه الجوقة الموسيقية الخارجية من وزن وقافية ، هناك الموسيقى الداخلية من خفية وظاهرة ، استطاع هاشم بأذنه الموسيقية استغلالها إلى أبعد حد ، فجعلها معيناً ينساب ماؤه على ما حوله بالنغم العذب ، والإيقاع المناسب لجو الإخوانية ، مما يدل على تمكن الشاعر من لغته وسيطرته عليها ، بإجادة اختيار الكلمات المناسبة ، والنظام الذي تتعاقب فيه ، إلى جانب باقي الكلمات من تلاؤم بين حروفها وحركاتها ، فالموسيقى الداخلية الظاهرة تلمسها في كل محاولة للتأنق في التعبير ، فهي تنبع من سيطرة حرف أو حرفين ، أو ترديد لفظة : أو

---

(١) أصول النقد الأدبي / أحمد الشايب ـ ٣٢٥.
(٢) موسيقى الشعر د / إبراهيم أنيس ـ ٢٤٨ .

عبارة أو تركيباً معنياً ، أو ترصيعاً أو حناياً أو طباقاً أو سجعاً ، لأنها تهب الكلام قوة نغمية لها رنين خاص تعطى النص الشهرة والذيوع ، وقد أشار آبركومبى إلى هذه الموسيقى اللفظية ، فقال : " هناك ناحية أخرى لتأثير الكلمات متتالية متعاقبة ، وهذا ما يعبر عنه بالانسجام أو موسيقى اللفظ ، وهذه الموسيقى اللفظية من أهم وسائل الانتفاع بالأصوات في فن الأدب " (١) وأشار إليها أيضا الدكتور / محمد زكى العشماوى ، وقال : " إن جزءاً هاماً من موسيقى الشعر نابع من علاقات اللغة وأصواتها ونبراتها ، وما تحمله تلك الأصوات والنبرات من المشاعر " (٢)

وبالنظر في إخوانيات ذوى الرحم عند هاشم على هذا نجد أنه قد نجح في توفير هذا الإيقاع الداخلى الذى سيطر على إخوانياته من تكرار حرف أو لفظة ، أو عبارة ، بجرسها وانسجامها ، وتناسقها مع ما قبلها وما بعدها ، بلفظها أو بمراد فها أو بمشتقاتها ، أو بمعان يترتب بعضها على بعض ، أو بالتفاوت أو مقابلات ، بكل ما يحرك الذهن ويثير النفس، وكل إخوانياته تصلح دليلاً على ذلك ، مع خلاف بينهما في الجرس الموسيقى ارتفاعاً وانخفاضاً حسب الجو الشعوري الذي تضفيه الإخوانية ، والمقام الذي قيلت فيه .

أما من حيث الموسيقا الخفية فإن الشاعر قد نجح إلى حد بعيد في التعبير عما بين الإخوان سواء كانت الأخوة حقيقية أم مجازية ، تعبيراً صادقاً ، فأفرغ طاقة اللفظ ذي الجرس القوى ، بحسه الموسيقى ، ودورة الشعوري في نقل إحساس الشاعر وفكره إلى الملتقى " حتى لتحس وأنت تسمع القصيدة ،أو تقرؤها ، أنك أمام بناء فنى متكامل قد وضع فيه كل شئ في موضعه ، في دقة وإحكام على يد فنان ماهر ، يدرك إسرار الجمال ، ويعرف مواطنه ، فتشعر كأنك أمام لحن موسيقى متناسق النغم ينساب إلى النفس فيأخذ بمجامعها ، وهذا التناسق الفني متنوع بحسب المعنى الذي يريد الشاعر أن يعبر عنه " (٣) ، " ولاشك أن الموسيقى الخفية أصدق الألوان الموسيقية في الشعر ، لأنها تمثل روح الشاعر

---

(١) قواعد النقد الأدبي ــ ٤١ ، ٤٢ .
(٢) قضايا النقد الأدبي والبلاغة .

(٣) رحلة مع النقد الأدبي د / فخري الخضراوى ـ ١٧١ .

وفنه ، إذ هي أثر لكل العناصر الفنية مجتمعة في شعره من عواطف وأفكار وصور وألفاظ وأخيلة " [1] .

فالموسيقا الخفية رهن بنجاح الشاعر في تحقيق العناصر السابقة متوائمة مع موضوع الشعر ، وملائمة لأفكار الشاعر على الوجه الأكمل، فإذا تحققت تلك العناصر فإن الموسيقا الخفية ثمرة أكيدة لاجتماع هذه العناصر في نص أدبي تحكمها قيم صوتية أرحب من الوزن والنظم المجردين ،ويحكمها اتساق الأفكار والصور والألفاظ والتعبيرات ، في إطار الهدف الواحد الذي يرمى إليه النص .

ومن مظاهر هذه الموسيقا في إخوانية كإخوانية له يهنئ فيها ابن عمه وسميه (هاشم أحمد هاشم الرفاعى) مثلاً :

١- فقد تكرر حرف الراء مثلاً في كلمات (الزهر / السحر / ترددها / ربوع / العطر / أفراح / البشر / الربا / الفجر / النور / يسرى / وغرد / الخصر) إلى أخره وبما في هذا الحرف من تكرار وموسيقية تشعر بجو الفرح والسرور وزيادة على كون روى القافية حرف الراء المتكرر مع كل بيت .

٢- الألفاظ الفخمة المشعرة بجو السرور الذي يلقى بظله على الكون من حوله (جنة الزهر / لحن فاتن السحر / أنغام ترددها / ربوع الظل والعطر / أطياف من البشر / تبلج الفجر / فعاد النور يسرى / وغرد بلبل شاد .. إلى غير ذلك من الألفاظ المشعرة بجو الفرح والسرور .

٣- العبارات والجمل الخبرية مثل (طرب الفؤاد / وما علمنا منطق الطير / وغرد بلبل شاد / سعدت بفرحة العمر / عيدك باسم الثغر أضاء فيك سني الأضحى سني الفطر / أضاء على جوانبه) إلى غير ذلك مما يصف عموم الفرحة وطغيانها على ما حوله .

٤- تكرار الفعل الماضي (طلع / عاد / غرد / طرب الفؤاد / علمنا / سعد / أضاء) .

٥- الصور مثل (لحن فاتن السحر / أنغام ترددها ربوع الظل والعطر / أفراح مغلفة / عاد النور / صوغي يا عروس الوحي تيجاناً من الدر

---

(١) شاعر العروبة والإسلام أحمد محرم / محمد إبراهيم الجيوشى – ٢٥٩ .

/ هاتى الشعر منضوداً / يومك ضاحك حال / عيدك باسم الثغر / قرابتي ثنت قلمي فما يطرى) إلى أخره .

٦- الجمع بين الإنشاء والخبر ليصور الفرحة التي عمت كل شئ .

٧- العبارات الموحية التي توحي بمعان تشع على ما حولها ، وتلفت الأنظار لها ، مثل (أولئك قوم قد سموا شرفاً، أن يوفقنا إلى الخير / فنلت اليوم لؤلؤة / سليلة منزل الطهر / جمعت إليك مختالاً / كريم الأهل والطهر) .

فقد استطاع الشاعر أن يجمع في هذه اللوحة أسباب الموسيقا الداخلية والخارجية الظاهرة والخفية بهذه العناصر متضامة متلاحمة راسمة الأصوات المسموعة والروائح المشمومة والأضواء المرئية / وألف من ذلك كله جوقة موسيقية ، مما يدل على تمكنه اللغوي وأذنه الموسيقية المرهفة ، التي رسمت هذه الموسيقا المناسبة للمقام من فرح وسرور بهذه المناسبة السعيدة .

البديع

وإذا كان الأدب العربي في نشأته ابتعد عن الصنعة البديعية ، وانطلق سهلاً سلساً ، بعيداً عن التكلف الممقوت فإن ذلك لا يمنع وقوع بعض ألوانه عفو الخاطر ، دون تكلف أو اجتلاب ، فكان لوناً من ألوان الزينة ، يضاف إلى الأدب فيزيده بهاء وجمالاً ، حتى إذا جاءت عصور الضعف ، وأخذ الأدب يغرق في الصنعة البديعية والموشى اللفظي والمعنوي كتعويض عما فقده من الجزالة والقوة والموضوعات الهامة ، وبعد أن حاول الأدباء أن يغطوا ظاهرة التقليد للقدماء فاستمر ذلك من القرن الرابع الهجري إلى بدايات العصر الحديث ، حيث بدأت بواكير النهضة ، والأدب يرسف في أغلال البديع ، على أن البديع ليس كله معاباً ، فما كان مقتصداً فيه ، وجاء عفو الخاطر دون قصد أو تصنع ، فلا عيب فيه ، وهو جمال يضاف إلى جمال الأدب ، والعكس بالعكس ، والحق أنه إذا كانت المحسنات البديعية في عصورها المتأخرة قد أصبحت موضع مؤاخذة من النقاد الذين حملوا عليها وسفهوها ، ورموها بالتكلف الممقوت ، فإن هذا الحكم لا ينسحب عليها جميعاً ، ولا نسلم به على إطلاقه ، إذ كانت في كثير من الأحيان تأخذ طريقها إلى الأسماع والقلوب في إعجاب ويسر وقبول ، ولو أننا وقفنا عند شاعر مثل صفى

الدين الحلي ، وهو من شعراء العصور المتأخرة التي أسرفت كل الإسراف في البديعيات ، لا نملك إلا أن نعجب به ، ونطرب لبديعياته ، كما في قصيدته التي مطلعها :

أسبلت من فوق النهود ذوائبا فتركن حبات القلوب ذوائبا

وكما في قصيدته (قالت وقلت) التي مطلعها :

قالت : كحلت الحفون بالوسن قلت : ارتقاباً لطيفك الحسن

قالت : تسليت عن مودتنا قلت : لها بالبكاء والحزن [1]

وهكذا نجد الإبداع الذى يملك القلوب والأسماع ، قصارى القول إن من المحسنات ما هو مقبول ، بل جيد تطرب له الأذان ، وتستروح له النفس ، ومنها ما هو متكلف مر ذول ، نحس فيه التكلف والإلحاح ، وهكذا كانت قضية الصنعة البديعية ضحية حكم عام مسلم ، لا نسلم به .

وإذا كان عصر الشاعر الأدبي قد تخلص من أثقال البديع ، وانطلق إلى آفاق السلاسة والسهولة ، فقد عنى الشاعر بتجويد أسلوبه ، وإتقان صياغته حتى جاء شعره مثلاً لروعة البيان ، وإشراق الديباجة ، ووضوح الفكرة ، ونصاعة الأسلوب ، وصفاء العبارة ، وكانت المحسنات البديعية من بين عناصر الجمال في صياغته الفنية وخصائصه الأسلوبية ، ولكنها مع ذلك لم تكن هدفا مقصوداً ، بل كانت تجئ عفوية غير متكلفة طبيعية في التعبير لم تفسدها الصنعة ، فإن وجد شئ في شعر الشاعر وإخوانياته من المحسنات البديعية ، فهو على قلته أصيل في التعبير ، لا تكلف فيه ولا اقتسار ، ولا يذهب بهدف الشاعر ، بل يخدم هذا الهدف ، ويزيد جمال المعنى [2] ، وذلك كالطباق والمقابلة، ومراعاة النظير (التناسب) وحسن التقسيم وحسن التعليل ، وكل ذلك لم يفسد شيئاً من جمال الإخوانيات ، بل زادها جمالا بما أضفاه على اللفظ من تنعيم وموسيقا سبق أ، أشرنا إليه في مبحث الموسيقا وعلى المعنى من إيضاح للفكرة وتضخيم للشعور ، لأنه جاء عفوياً غير متكلف لا يشعر به المتلقي إلا جمالاً مضافاً لجمال الأسلوب .

---

(١) ديوان صفى الدين الحلي ـ ٩٥ دار صادر بيروت ١٩٦٢ م .
(٢) أسس النقد الأدبي عند العرب / أحمد بدوى ـ ٤٧٦ .

ومن المحسنات البديعية التى جاءت في إخوانيات ذوى الرحم عفوا دون قصد أو اجتلاب جامعة بين الجمال اللفظي الموسيقا والجمال المعنوي : مراعاة النظير (التناسب) وهى أن يجمع في الكلام بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد كما في قوله في إخوانيات لجده :

نجائب أخضاها المسير باهلها وطال بها التأويب والرمل والوخد

مناسباً بين السير وألوانه من التأويب والرمل والوخد [1]

وفى الساحة الكبرى أقيمت منازل يرى عندها الإكرام والخير والرفد

ضريحك مثوى البر والفضل والتقى وقبرك فيه الزهد والعلم يا جد

ودنياك كانت للأنام هداية وأخراك مجمع الهدى والرشد

وفى قوله في الإخوانية نفسها :

فإن صغت فيك الشعر درا فإنما لمثلك يهدى الشعر والشكر والحمد

فيا فرع أسمى دوحة نبوية وفخر الألى في الله شفهم السهد

ويا غصن أزكى سرحة هاشمية إلى كل ركن في المكارم تمتد

إلى غير ذلك الكثير الذي يعدد به صفات المدح الكثيرة لجده ، الذي جمع المجد من أطرافه ، زيادة على العطف الذي يرى منه السامع تعداد الصفات ، مع أنها مترادفة في معظمها .

ومن المحسنات البديعية التي توضح المعنى وتظهره وتجمله "المقابلة" التي تجمع بين الشئ وما يقابله ، فالضد يظهر حسنه الضد ، كقوله في إخوانية لجده :

ودنيـــاك كانت للأنام هـــداية وأخراك فيها مجمع الهدى والرشد[2]

وقوله في إخوانية أخرى :

تغنى مقيـــم في الديـــار ببـــره ومن سار في الظلماء للبيد طاويا[3]

---

(١) الديون ـ ٣٠٧ ـ (التأديب : السير طول النهار ـ الرمل : بفتح الميم : الهرولة ، الوخد : إسراع البعير ، وهو يرمى بقوامه كالنعام) .

(٢) الديوان ـ ٣٠٧ .

(٣) الديوان ـ ٣٠٠ .

فهذا الذي إن عاش يحيا مكرماً وإن مات يمضى خالد الذكر باقيا[١]

وقوله في إخوانية لوالده :

إن تضحك اليوم امرءاً وتسره فغداً إليـــه المبكيـــات ستسرع

وإذا سقته اليوم شهداً فى غد يأتيه كأس النائبات المترع

فاذهب عليك من الإله تحية ما بدر الظلماء فجر يسطع

وعزاؤنا أن سوف يجمعنا الفنا بك فالفناء مفرق ومجمع[٢]

ومن البديع أيضا حسن التقسيم الذي يتمثل في ذكر أحوال الشئ مضافا إلى كل حالة ما يناسبها ويليق بها ، ومن أمثلة ذلك قول أبى الطيب المتنبي :

سأطلب حقي بالقنا ومشايخ كأنهم من طول ما التثموا مرد

ثقال إذا لاقوا ، إذا دعوا كثيرا إذا شدوا قليل إذا عدوا

فالشاعر قد أضاف إلى كل حالة ما يلائمها ، مما جعل شاعرنا ينظم إخوانياته إلى جده على نمط قصيدة المتنبى متأثراً به يقول :

كرام إذا أعطوا، شموس إذا بدوا كثير إذا نودوا ، قليل إذا عـدوا

حسان سجاياهم ، جزيل سخاؤهم تواضـعهم جـــم ، فضـائلهم عـد

فـأينع أزهـاراً ، وطـاب مجانياً ولـذ ثمـاراً عنـدها يطلـب الشـهد[٣]

فمنار إرشاد ، وكعبة قاصد وغيات مذعور ، وغيث مؤمل [٤]

---

(١) الديوان ــ ٣٠١ .
(٢) الديوان ــ ٣٨٧ .
(٣) الديوان ــ ٣٠٨
(٤) الديوان ــ ٣٠٥

إلى غير ذلك من البديعيات الإخوانية ، التى لم تكن متكلفة ، وإنما كانت زينة تضاف إلى جمال شعره .

الخيال

التعبير الحقيقى لا يخرج كل ما يدور بخلد الشاعر ، ويشعر أن تعبيره لا يزال قاصراً عن إخراج كل ما يدور بنفسه ، مهما بلغ من الإجادة والبراعة في إختيار ألفاظه والمواءمة بينهما وبين معانيه ، ولذا فإنه يرتقى بتعبيره وينتقل خطوة أخرى من الحقيقى إلى المجازى مستخدماً ملكة الخيال التى تحول الأمور المعنوية إلى صور مادية محسوسة (تشبيها أو استعارة أو كناية أو مجازاً) .

والصور الشعرية هذه هى هى جوهر التعبير الفنى ، ووسيلة من وسائل الشاعر في استعمال اللغة على الوجه الأكمل الذى يكفل نقل مشاعره وأفكاره ، فيؤثر في نفوس قرائه[1] "وهو الملكة التى يستطيع بها الأدباء أن يؤلفوا صورهم وهم لا يؤلفونا من الهواء ، إنما يؤلفونا من إحساسات سابقة لا حصر له، تختزنها عقولهم ، وتظل كامنة في مخيلتهم حتى يحين الوقت ،فيؤلفوا منها الصورة التى يريدونها ، صورة تصبح لهم لأنها من عملهم [2] أو هو التعبير الذى ينقل شعور الشاعر وأفكاره معتمداً على التجسيد لا على التصريح ولا على التجريد ، فهو وسيلة نقل التجربة عاطفة وفكرة على وجه يكفل نقلهما إلى الآخرين ، لتثير في نفوسهم ما أثاره هو شخصيا ، ويراه الجاحظ أحد أركان الشعر ، فيقول : " إنما الشعر صناعة وضرب من الصبغ ، وجنس من التصوير "[3]، ويتحدث عبدالقاهر الجرجانى عن إحدى صور الخيال ، وهو التمثيل ، فيقول : " والتمثيل إذا جاء في أعقاب المعانى أو برزت هى باختصار في معرضه ، ونقلت عن صورة الأصلية إلى صورته ، ضاعف قواها في تحريك النفوس ودعا القلوب إليها " [4] .

ولأن الخيال في المفهوم العام هو إحدى قوى العقل الذى يتصور بها الإنسان الأشياء المغنية غير المادية على حقيقتها المستمدة من العناصر الواقعية لها ، أو العناصر المصورة لها ، فالأديب يتوسل

---

(١) الإسلام في شعر أحمد شوقى د / أحمد الحوفى ـ ٢٧٣.
(٢) في النقد الأدبى د/ شوقى ضيف ـ ١٦٧ .
(٣) الحيوان للجاحظ ـ ٣ / ٤٤ ط ١ .
(٤) أسرار البلاغة / عبدالقاهر الجرجانى ـ ٨٦ .

بالخيال أولاً في الوقوف على ما أوجده الحدث أو الموقف في نفسه من مشاعر وأحاسيس ، ويتوسل به ثانياً في تحول المعانى الناشئة عن الاستجابة للموقف أم الحدث إلى صور تعبيرية ، أو عبارات وصفية تتلاءم مع المتلقين ، حتى يتمكن بها من إشراكهم معه فيما يجد [١] .

والخيال ينقسم إلى قسمين : قسم اتخذه الإنسان ليتفهم به مظاهر الكون وتعابير الحياة ، وقسم اتخذه الإنسان لإظهار ما بنفسه من معنى لا يفصح عنه الكلام المألوف (التعبير الحقيقي) ، ومن هذا القسم الخيال اللفظى الذى يراد منه تجميع العبارة وتزويقها ومنه المجاز والإستعارة والتشبيه ، وغيرها من فنون الصناعة وصياغة الكلام [٢] ، ليثير العاطفة في نفوس السامعين ويلهبها ويشعرهم بها في شعر الشعر ، وقد يكون الخيال أوسع دائرة مما سبق ، فيحيط بالقصيدة بناء وروحاً وموضوعاً وأفكاراً وخواطر " ويلعب فيها دوراً أساسياً ، ويتوقف النضج فيها على حيوية الخيال ، وفاعلية نشاطه في التفاعل مع عناصر التجربة " [٣] .

والخيال هو الملكة التى تكون الصور الشعرية وتشكلها ، وذلك بتجميع جزئيات الواقع وإذابتها وتحطيمها ، وصهرها لتكوين صور جديدة ، تحمل معها علاقات جديدة ، تعبر عن رؤيا الشاعر ونفسه وانفعاله ، ويظل الخيال متتبعاً إلى أن يضعها في مكانها المناسب الذى أعده لها في بناء القصيدة كى تتآلف مع ماقبلها وما بعدها ، وتأخذ دورها كخلية حية في كل متكامل ، تتفاعل مع ما حولها بما لها من ظلال وإيحاءات .

ويرتقى الخيال إلى تخطيط القصيدة وبنائها ، عاطفة وفكراً وأسلوباً وصياغة ، حتى يصل بها إلى مستوى من الكمال الذى يتشاكل مع شاعرية الشاعر وإمكاناته الأدبية ، والخيال لا يعمل عمله إلا إذا دفعه الانفعال والعاطفة إلى العمل ، وهو ضرورى للشاعر لأنه أنفع المواهب النفسية في التعبير عن العاطفة التى هى عماد الشعر ، وهو اللغة الطبيعية لأداء انفعالاته ، ما دامت اللغة العادية عاجزة عن ذلك [٤]،

---

(١) في النقد الأدبى الإسلامى د / إبراهيم عوضين – ٢٥٧

(٢) الخيال الشعرى عند العرب / أبو القاسم الشابى – ٢٢٠ .

(٢)التصوير الفنى في شعر محمود حسن اسماعيل د / مصطفى السعدنى – ٥١ .

(٣)أصول النقد الأدبى / أحمد الشايب – ٢١٠

فالشعر هو الذى يحمى للناس أبهة الخيال ، فيظهر للناس في وحدة جميلة تسترعى الأنظار وتخلب الألباب [1] ، والأدب لا يكون أدباً ممتعاً للجمال النفسى والفنى إلا إذا طرقه الخيال طرقاً شاملاً فهذا من جفاف الفكر ، وروض من صلابة العقل ، وغلفها بلون من ألوانه المقبولة نفسيا وعاطفياً .

وقد تكون هذه الصورة كلية مؤلفة من صور مترابطة ، ترسم مشهداً عاماً ، تجمع بين المرئى والمسموع والساكن والمتحرك ، أو يرسم بالكلمات صورة نفسية ، يجسد فيها مشاعره ، ويوصل عاطفته إلى جماهير المتلقين .

وقد تكون الصورة جزئية ، وهى تتمثل في التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز ، وهذه الصورة الشعرية وليدة الخيال الذى يستمد صوره من المعلومات ، وأنواع التجارب ، وانعكاسات الحياة في النفس[2] أى أن البيئة هى جماع ذلك كله تربية وتعليماً وثقافة وديناً وخلقاً والتزاماً زماناً ومكاناً ، تحضراً وبداوة ، كل ذلك يرفد الخيال ويعضده ، ويؤثر فيه سلباً وإيجاباً ويلون اتجاهه شرقاً وغرباً وما إلى ذلك .

ومن هنا وجدنا أثر العاطفة في توجيه خيال الشاعر ، نحو القيم الدينية والمعانى الإسلامية ، والعلاقات الاجتماعية والروابط الأخوية ، فيلحق في أجواء هذه المعانى ، ويسترفد مضامينها ، ويجسد حقيقتها ، ويستلهم روحها ، بل ووسائل تعبيرها من لفظ وعبارة وصورة وفكرة حتى ليمكنك القول بأن خياله كان إسلامياً .

كان الخيال من أهم عوامل العبقرية عند هاشم ، وعنصراً هاماً من عناصر التعبير ، عاطفة وفكراً وخواطر إيمانية في أشكالها السياسية والاجتماعية والحضارية ، فموهبته في التصوير والتخيل تعينه على تجسيد الأبعاد المختلفة لرؤيته الشعرية فاستطاع تصوير شعوره تصويراً فنياً بارعاً ، حين تناول علاقة الأخوة في ذوى الرحم واستقصى جميع جوانبها بخياله الحب في صور حية ناطقة معبرة عن الأحاسيس والمشاعر الداخلية للنفس البشرية ، مما يدور بين الإخوان ، مما جعله وصافاً ماهراً على نحو ما بينته الدراسة ، ففى أخوة النبوة لأمه نرى

---

(١) مجلة الرسالة د / شوقى ضيف عدد ٢٨ في ١١ يناير ١٩٣٤ م.

(٢) العامل الدينى في الشعر المصري الحديث د / سعد الدين الجيزاوى ـ ٥٤٤ .

خياله الرحب العميق في المزج بين عيد الأم وعيد الربيع ، ويقارن بينهما ، وبين آثارهما على الوجود في صور فنية رائعة ، فيشخص الأعياد ومظاهر الوجود بما يظهر الفرحة ، ويعمم البهجة ، وما ذاك إلا أثر لحب والدته واعترافه بفضلها ، فالأعياد تتجمع معا ، والأعياد تكسو الوجود محبة ونضارة ، وعيد الأم يسطر للحنان صحائفاً ، والعطر يتضوع في عيد الربيع ، وعيد الأم يغدق رحمة والرحمة تسيل على زهر الربيع فيينع ، والرياض ترتدى أثواباً وتلبس ثياباً فرحة بعيد الأم ، والربيع ياتى ، وبثغر باسم ، وسيودع الرياض يوماً ، وجعل القلب عرشاً تقيم فيه الأم ، والأمة معلمة ، والهدى سائل يشرب ، والحنان كأس تهدى ، إلى أخر ما هناك من صور خيالية ، تنم عن عاطفة الحب التى يحملها لوالدته ، معترفاً بجميل أياديها عليه وعلى إخوانه ، يقول :

عيد الأمومة والربيع تجمعا ... عيدان قد طلعا على الدنيا معا

كسيا الوجود محبة ونضارة ... لله ما أبهى الوجود وأبدعا [1]

إلى آخر الإخوانية كما سبق في أخوة النبوة .

وبعمق خاليه يصور زفاف ابن عمه بفرحة عمت الكون والأحياء، فجنة الزهر أرسلت شذاها ، واللحن فاتن للحضور ، وربوع الظل والعطر تردد الأنغام الموسيقية ، وأطياف البشر تغلف الأفراح ، وتطلع على الربا بمثل ثبلج الفجر ، والنور يسرى بين الأماكن والنوادى، والبلبل يغرد فرحاً ، علمناه منه وما عامنا منطق الطير ، وعروس الوحى تصوغ تيجاناً من الدر ليكلل بها العريس والشعر منضود ، ويوم الفرحة يضحك ويبتسم ويضئ كأنه عيد الفطر والأضحى معاً ، والقرابة تمنع من الكلام ، وباقة الورد برائحتها الطيبة تيعى وحدها إلى أصهارنا الغر ، والعروش لؤلؤة إلى أخر ما جمع من صور جزئية ، تضامنت لرسم صورة كلية تنم عن عاطفة الحب التى يكنها لابن عمه وسميه ، فانطبعت آثارها على الحياة والأحياء ، يقول :

شذى من جنة الزهر ... ولحن فاتن السحر

وأنغام ترددها ... ربوع الظل والعطر [2]

---

(١) الديوان ــ ٣٣٢ .

(٢) الديوان ــ ٣٦٧ .

إلى آخر الإخوانية ، كما سبق في أخوة أبناء العمومة .

إلى أخر ما سطر خياله من صور كلية وجزئية موحية ومعبرة عن عاطفته ووجدانه ، والتي استطاع بتتبعها نتقلها إلى المتلقين ، فحرك انفعالاتهم ، فشعروا بما يدور في نفسه ، وذلك لصدقه في عاطفته ، ودقته في ، نقل ما يشعر به ، في خيال بارع متدفق بالصور الفنية الرائعة الجامعة للحركة واللون والصوت ، وهذا مما يدل على خصوبة خاليه المتدفق بالصور الفنية البارعة ، والتي عبرت عن الإخوانيات في مجالاتها المتعددة ، مما أثرى صوره وأخيلته ، فرأيناها قوية الدلالة لما لها من التأثير والقيمة الفنية ما يسمو بها إلى مستوى عال من الرقى والبراعة عند من يتلقى أدبه نقاداً وقارئين ، فقد بلغت كلماته قاموس البحر .

الصور الخيالية بين التقليد والتجديد

ولقد كان من الطبيعى وقد جاء الشاعر في عصر ازدهر فيه الأدب ، وقويت فيه ملكات الإبداع الفنى والتجديد الأدبى ، وظهر أثر اختلاط بعض أدبائنا بالغرب ، أن ظهر عندنا اتجاهات أدبية ، منها ما يدور في فلك القدماء غير عابئ بالجديد ، ومنها ما يدور في فلك الغرب ناظراً إلى التراث نظرة ازدراء ، وبراه لا يصلح لمجاراة العصر ، وفريق ثالث توسط بأن حافظ على التراث ولم يغفل عن الجديد ، بل فتح عينيه لكل جديد ، ومنهم شاعرنا الذى حافظ على القديم في الموضوعات التقليدية ،فجاءت صوره الخيالية كصور القدماء ، ومعانيه كمعانيهم ، وإن كان قد أضاف لبعضها ، أو حور فيها بالزيادة والنقص ، أو التغيير مما جعله جديدا أو كالجديد ، ومبتدعا أو كالمبتدع ، بل ربما ابتدع صوراً ومعانى جديدة أوحى بها العصر ، أعانته عليها موهبته الأدبية وثقافته العصرية ، وهذا من أسرار عبقرية التصوير عند هاشم الرفاعى خاصة في إخوانيات النسب والقرابة ، التى نفذ من خلالها أعماق المتلقين .

لقد ألفنا منذ عصور الأدب الأولى أن يشبه الجواد بالبحر ، والشجاع بالأسد ، والوجه المشرق ، بالقمر ، والقد المعتدل بالغصن ، والجيد الطويل ، والطرف الكحيل بالغزال ، والردف بالنقا ونحو ذلك

مما تناقله الأدباء منذ العصر الجاهلى .

ففى إخوانية لجده يصف الذين حضروا مولد جده بصورة بصورة قديمة من البيئة العربية ، وإن تشابها في إقامة الخيام ، وإن كان إشعال النار ليلاً انقضى زمانه ـ كما أنه خاص بالبيئة البدوية أو ما يشبهها ، يقول :

خيام لسادات رفيع عمادها يشب إذا أمسوا لنيرانهم وقد

فرفيع العماد كناية عن رفعة القدر وطول القامة ، إشعال النار ليلاً عادة عربية قديمة .

وفى إخوانية أخرى لجده جعل الدهر يمشى راويا الفضائل جده ومكارمه سبق بها المتنبى في قوله :

وما الدهر إلا من رواة قصائدى إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشد

يقول :

فلا تنس بالذكر المعطر سيداً لما نال من فضل مشى الدهر راويا[1]

وفى إخوانية لوالده يتحسر على فراقه ، فيشخص الدنيا ، ويراها شخصاً ظالماً مستمراً في ظلمه (تشخيص) يسقى كؤوس النائبات ، وجعل النائبات مشروباً يشرب (تجسيم) يقول :

لهفى على الدنيا تزول ولم تزل تسقى كؤوس النائبات وتجرع[2]

وفى إخوانية نفسها يقول :

لكنها الأقدار هذا دأبها تغتال منا من تشاء وتنزع

إن تضحك اليوم امرءاً وتسره فغدا إليه المبكيات ستسرع

وإذا سقته اليوم شهداً في غد يأتيه كأس النائبات المترع *

فقد شخص الأقدار (استعارة مكنية) وجعلها قادرة على فعل الأضداد ، فهى تغتال وتنزع ، وتضحك وتبكى ، وتسقى الحلو والمر،

---

(١) الديوان ـ ٣٠١ .
(٢) الديوان ـ ٣٨٦ .
* الديون ـ ٣٨٧ .

والكناية عن لذائذ الحياة بالشهد ، ومصائبها بالنائبات (كنايتان) وجعلها مشروباً يشرب صورة أخرى ، فهى صورة متداخلة .

وفى إخوانية أخرى لابن عمه يعزيه في وفاة خاله الذى جعل حياته مرتبطة بحياة النبل والكرم والمكارم والجود والندى ويجعل منها أناسى تموت (تشخيص) بموت الممدوح ، يقول :

وددنا أن يعيش النبل دهراً وأن نحيا المكارم في ارتقاء

وكنا نبتغى للجود عمراً ونرجو للندى طول البقاء[1]

وإذا كان القدماء يصورون الحزن على الفقيد بالدماء تسيل بحاراً، فإن الشاعر لا يقف عند هذا التشبيه ، ولكن عندما فاض الحزن شخصه إنساناً ينطق بالرثاء للميت ، مما أحيا الصورة وجعلها جديدة في صورة رائعة ، يقول :

رأيت الخطب جل عن العزاء ففاض الدمع ينطق بالرثاء [2]

وتصوير الحياة القصيرة بعمر الزهور أمر معهود في الشعر العربى ، ولكنه يستدرك بإضافة ما يجعل الصورة جديدة في قوله في إخوانية النسب في رثاء والده ، يقول :

قضى عمره مثل الزهور فعيشها قصير ، ولكن تترك العطر زاكيا[3]

والقرابة تثنى القلم وتمنعه من الكتابة ، والورد يسعى إلى الأصهار ، يقول :

فإن قرابتى لك قد تثنت قلمى فما يطرى

وهل أثنى على نفسى وألبس حمله الفخر

فهذى باقتى تسعى بزهر طيب النشر

منمقة لكى تهدى على أصهارنا الغرّ[4]

ويجعل من سكون الليل الأوهام أستاراً ، والخيال والأفكار تموج في رأسه ، وجعل من الظلمات قضبان وأسوار ، وجعل للأحاسيس

---

(١) الديوان ــ ٣٩٠ .
(٢) الديوان ــ ٣٩٠ .
(٣) الديوان ــ ٣٠١ .
(٤) الديوان ــ ٣٦٧ .

أطفار إلى غير من الخيالية الطريفة ، وذلك في إخوانية إلى شقيقه الأستاذ / مصطفى الرفاعى لما قبض عليه ، يقول :

وحولى من سكون الليل والأوهام أستار
وفى رأسى خيالات تموج به وأفكار
سجين لى من الظلما ت قضبان وأسوار
تنذينى أحاسيس لها بالقلب أظفار
تموت لديه آمال وتذوى منه أزهار[1]

هذا قليل من المعانى والأفكار والصور الخالية التى شاعت في إخوانيات ذوى الرحم ، وبعضه كما رأينا تقليدى استمده من معانى وصور وأفكار القدماء ، وبعضه تقليدى كذلك ولكنه تصرف فيه بالإضافة والتحوير حتى بدا طريفاً جديداً ، أو كالجديد ، والبعض طريف جديد تجلى في إبداعه صوراً عصرية بموهبته الشعرية الفذة ، وملكته النادرة ، ولقد كان في طريقه لمزيد من النمو الأدبى والفنى ، لإتحافنا بمزيد من الجديد المبتكر .

وإذا كانت الإخوانيات حافلة بالصور الخيالية بكل ألوانها ، فإن أكثرها شيوعاً هو التشخيص الحى الذى يعرف في البلاغة (بالاستعارة المكنية) التى تبعث الحياة في الأشياء والجمادات ، فيجعل لها حركة وصوت ولون وما إلى ذلك .

خطة بناء الإخوانيات

تتكون الإخوانية من أجزاء تتعاون فيما بينها لتكون وحدة فنية واحدة ، لها خطة واضحة تبدأ بـ :

أ- العنوان :

وهو أول هذه الأجزاء ، وأحد أركان الخطة في الإخوانيات ، وهو سمة من سمات الشعر المعاصر الذى يطالب بالوحدة والترابط الأجزاء جميعاً ، وقد وفق الشاعر في وضع عنوان لكل إخوانية من إخوانياته ، دالا دلاله صريحة على موضوعه ، الذى تحدثت عنه

---

(١) الديوان ــ ٢٢٥ .

الإخوانية بأفكارها الجزئية والكلية التى تندرج تحت هذا العنوان ، مما يدل على معايشته لتجربته ، وعمق فهمه لها ، وغالباً ما دارت إخوانياته حول العنوان الموضوع لها ، وينون العنوان إشارة مباشرة للموضوع أو تلخيصاً له كمولد الرفاعى ، وعزيز يفارق ، وزفاف ابن العم إلى آخر ما هناك من عناوين للإخوانيات وغيرها اختارها الشاعر بنفسه في حياته ، وإجادته في إختيار عناوينه إجادة ظاهرة كانت دليلاً آخر على تمكن الشاعر من موضوعه وعمق معايشته لتجربته ، مرتبطاً بموضوع الإخوانية ، بما يتم الوحدة الموضوعية والعضوية ، لأنه اختارها بحسه الأدبى المرهف ، وذوقه العالى الرفيع ، فجاءت ملائمة متلاحمة مع موضوع الإخوانية .

وإلحاح النقاد على الوحدة الموضوعية والعضوية حتم على الشاعر وغيره التدقيق في إختيار العنوان ليكون موافقاً لما تحته من معان وأفكار دالاً دلالة مشعرة بموضوع الإخوانية ، بحيث يكون كالعضو الأساس فيها ، وقد نجح الشاعر في هذا الأمر إلى حد بعيد ، فكان هذا أحد النجاحات التى حققها في اختيار عناوينه .

ب ـ براعة الاستهلال :

ومن نواحى التميز عند الشاعر حسن بدئه للإخوانيات بما يسمى براعة الاستهلال ، فإذا كانت الإخوانية على منهج القدماء ، فقد تستهل بعض الإخوانيات بالشوق إلى الأحبة وديارهم على منوال القدماء في المطالع الغزلية لجذب المتلقى وإثارة وجدانه وتهيئته للسماع ، لأنه أول ما يقر في السمع ، فإن كان حسناً أقبل السامع على الكلام فوعى جميعه، وإن كان خلاف ذلك أعرض عنه ورفضه ، وإن كان في غاية الحسن لأنه تمهيد نفسى مطلوب يهئى المتلقى لاستقبال ما يأتي بعد ذلك خيراً كان أم شراً ، كما في إخوانية نسبية إلى جده ، يقول :

بات الفؤاد صبابة يتحرق ... وبه إلى دار الحبيب تشوق [1]

إلى أخر مطلع الإخوانية ، وفى إخوانية أخرى لجده يجعل المطلع مقدمة غزلية كذلك للاحتفال بالليلة الختامية لمولد جدة في أغسطس ١٩٥٣ م ، يقول :

لعبت بلبك ذات طرف أكحل ... وجنت عليك ببسمة لمقبِّل [2]

---

(١) الديوان ـ ٢٩٧ .

(٢) الديوان ـ ٣٠٣ .

إلى آخر مطلع الإخوانية وكذلك إلى غير ذلك من المطالع المشابهة .

وقد يكثر من ذكر المطلع الغزلى تأسياً بالشعراء ، ولكنه يصرح في الحقيقة أن قلبه ليس رهناً بمشيئة لفتاه تملكه بوصلها ، وتجرحه بهجرها، ولكنه يبكى مجد أمة أضاعته بلا تحفظ ولا روية ، يقول في إحدى الإخوانيات الإسلامية :

أقسمت لاحباً شكوت ولا هوى ... يدمى الفؤاد فيرسل الآهات
كلا فلست من الذين شقاؤهم ... وهناؤهم بمشيئة لفتاة
لكننى أبكى وحق لى البكا ... مجداً أضعناه بغير أناة [1]

على منوال مطلع الكميت بن زيد في قوله :

طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب ... ولا لعباً منى وذو الشيب يلعب
ولم تلهنى دار ولا رسم منزل ... ولم يتطربنى بنان مخضب

وعلى منوال قول البارودى :

سواى بتحنان الأغار يد يطرب ... وغيرى باللذات يلهو ويلعب
وما أتا ممن تأسر الخمر لبه ... ويملك سمعه اليراع المثقب

فنرى الشاعر هنا يحسن اختيار المطالع لإخوانياته ، وهذا من توفيقه في الدخول إلى الموضوع ببعض معانى الموضوع كتهيئة لنفسية المتلقى ، أو إعداد مسرح الأحداث حتى لا يفجأ بما في الموضوع من معانٍ وأفكار ، فيسترسل في الإصغاء أو القراءة وفى بعض إخوانياته يدخل إلى موضوعة مباشرة ، دون مقدمات تراثية ــ كما هو المعهود ، فقبيل الثورة بأيام في وزارة نجيب الهلالى اعتقل شقيق الشاعر الأكبر الأستاذ / مصطفى الرفاعى ، فقال هذه الإخوانية يشارك أخاه ، وينفث عن نفسه ، فكان هذا المطلع المناسب للمقام ، يقول :

مضى للنوم سمار ... خلت من أنسهم دار
فما أشجى لهم لحن ... ولا قدرن مزمار
وعدت بمهجة حرى ... وقلب ملؤه نار
وحولى من سكون الليـ ... ـل والأوهام أستار [2]

---

(١) الديوان ــ ١٥٥ .

(٢) الديوان ــ ٢٢٥

وفى إخوانية والدته ، وقد اجتمع عيد الأم مع عيد الربيع ، فدخل إلى موضوعه من هذه الناحية ، يقول :

عيدان قد طلعا على الدنيا معا ... عيد الأمومة والربيع تجمعا
لله ما أبهى الوجود وأبدعا ... كسيا الوجود محبة ونضارة
بيضاً ، وذاك العطر فيه تضوعا ... هذا يسطر للحنان صحائفاً
سألت على زهر الربيع فأينعا [1] ... وأطل عيد الأم يغدق رحمة

وهكذا يحسن الدخول إلى موضوعاته ، سواء أكان ذلك عن طريق المطلع الغزلى ، أم بغير ذلك بالتهيئة النفسية ، أم بتهيئة أرض المسرح للموضوع ، وتلك إحدى إمارات استحواذه على لب متلقى أدبه .

ج ـ حسن التخلص :

وبعد المطلع أيا كان لونه لا يفجأ المتلقى بالإنتقال إلى موضوعه مباشرة ، وإنما يحسن التخلص من المطلع إلى الغرض المقصود مع رعاية الملاءمة بينهما ، لأن المتلقى يكون مترقباً للانتقال من المطلع إلى المقصود ، ماذا يكون ، وكيف يكون ، فإن كان حسناً متلائم الطرفين حرك من نشاط السامع ، وأعان على إصغائه إلى ما بعده ، وإن كان بخلاف ذلك كان الأمر بالعكس[2] وقد راعى الشاعر ذلك في إخوانياته التى كان لها مطلع غير الغرض المقصود .

ففى إخوانيه لجده في ذكرى ميلاده ١٩٥١ ، يقول بعد المقدمة الغزلية :

وأنخ ركابك إن وصلت بساحة ... من نورها وجه الفضائل مشرق
قد شيدت أركانها أيدى الألى ... بيمينهم قبس الهدى يتألق
هم نبع كل كريمة وأساسها ... وبفضلهم غصن المروءة مورق[3]

فيحسن التخلص من السير إلى الأحبة ، إلى أن وصل إلى ساحة من نورها وجه الفضائل مشرق ، إنها ساحة جده ، وفى إخوانية أخرى لجده في مولده سنة ١٩٥٢ م ، يقول في نهاية المقدمة الغزلية :

---

(١) الديوان ـ ٣٣٢.
(٢) بغية الإيضاح ـ ٤ / ١٥٣ .
(٣) الديوان ـ ٢٩٧ .

دع الوجد واترك ذكر العشق جانبا وكف عن التشبيب واسل الغوانيا

ثم يحسن التخلص ، فيقول :

وسربا لقوافى نحو قوم أعزة ومجد بذكر الأكرمين القوافيا
رجال إذا ما المزن ضنت بمائها هم القطر ، كلا بل الغيث هاميا[1]

إلى غير ذلك من مواطن حسن التخلص الجميلة التى أجاد فيها .

بناء الإخوانيات

ثم يدخل الشاعر إلى موضوعه فيعرضه كما يشاء ، فلكل شاعر طريقته ، ولشاعرنا طريقته ، حيث يعد سالكافى إخوانياته مسلك القدماء القدماء ، والاتجاه المحافظ عموماً على أساس من وحدة الوزن والقافية مع تعدد الأغراض ، وتنوع الموضوعات وهذه سمة ظاهرة عند هاشم ، خاصة فى المرحلة الأولى من حياته الشعرية ، التى كان يدور فيها فى فلك القدماء ، وكان هذا تقليداً ثابتاً عندهم ، فى مثل أغراض المدح والرثاء ، وما إلى ذلك من الأغراض التقليدية المتوارثة ، وبذلك فقدت القصيدة تماسكها الفكرى ووحدتها الموضوعية ، وصارت أفكاراً مستقلة لا رابط بينها إلا الوزن والقافية – على رأى بعض النقاد المحدثين – ولكن بالتأمل وجد بينها رابط نفسى شعورى يجمع هذه المتفرقات فى سلك واحد ، لأنها خواطر تتداعى وتتوالى على ذهن الشاعر فى الشعر الغنائى ، على عكس الشعر الموضوعى قصصياً أو تمثيلياً أو مسرحياً ، فهو الذى يحتاج إلى ترتيب الأفكار والأحداث وتسلسلها تسلسلاً منطقياً ، وعلل أحد الباحثين أسباب تفكك القصيدة العربية القديمة ، لأنها كانت تدور حول ما يشغل الرجل البدوى وينبع من حياته ، مثل وصف الناقة والجمل والرحلة ، ومنازل الأحبة وحيوان الصحراء ونباته ، حتى إذا ظهر المدح والتكسب بالشعر ، لم يشأ الشاعر المفطور ، الذى كان يقول الشعر أصلاً للعبارة عما فى نفسه أن يتخلى عن هذا الغرض الشعرى

---

(١) الديوان ٣٠٠ .

الأصيل ، لكى يعرض قصيدته فى المدح ، ولذلك أخذ يجمع فى قصائده بين الغرض الشعرى القديم ، والغرض النفعى الطارئ ، أى يجمع بين حديثه عن الأطلال والناقة والصحراء والحبيبة ، ومدح من يريد أن يستدر عطاءه ، وهكذا تكونت القصيدة العربية ذات الأغراض المتباينة المتتابعة ، وأصبحت هذه الظاهرة تقليداً شعرياً ثابتاً عند العرب[1] ، ولما عاب المحدثون هذا النمط فى بناء قصيدة الشعر العربى القديم ، كان فيهم من أنصف هذه القصيدة العربية القديمة بنظرته الثاقبة ، فكان يرى أن اشتراط الوحدة الفنية جائز فى الأدب الموضوعى ، أما الأدب الغنائى فلا يشترط فيه ذلك ، لاختلاف طبيعة اللونين ، يقول : " إن دعوى الوحدة العضوية بتلك المقاييس سليمة من ناحية الفلسفة الجمالية ، ولكنها لا تكاد تتصور فى الشعر الغنائى ، الذى يقوم على تداعى المشاعر والخواطر فى غير نسق وضعى محدد ، وإنما تتصور هذه القصائد ذات الموضوع الذى له بدء ووسط ونهاية ، وبذلك لا تكون الوحدة إلا فى فنون الأدب الموضوعى[2] ، ونضرب مثالاً للإخوانيات التى بنيت على النمط القديم بإخوانيته إلى جده هاشم الرفاعى ، ألقيت فى ذكرى مولده بحضور النائب الوفدى الشيخ عبدالعظيم عيد نائب أنشاص، فقد بدأ المطلع بذكر الشوق والأشواق ، يقول :

دعانى إلى الإنشاد شوق سمابيا ... وما كنت لولا هزة الشوق شاديا

إلى أن يقول :

دع الوجد واترك ذكر العشق جانبا ... وكف عن التشبيب واسل الغوانيا

ثم ينتقل إلى مدح جده بالعزة والكرم والهدى والريادة فى الخير ، فهو المكرم فى الدنيا خالد الذكر فى الآخرة ، طالباً ممن يزوره أن يلم بقبره ، يقول :

---

(١) الشعر المصرى بعد شوقى / محمد مندور – الحلقة الأولى – ١٩ .

(٢) النقد والنقاد والمعاصرون / محمد مندور – ١١٣ بتصرف .

وســر بــالقوافى نحــو قــوم أعــزة ومجـد بـذكر الأكـرمين القوافيـا
رجـال إذا مـا المـزن ضـنت بمائهـا هم القطر، كلا بل هم الغيث هاميا

ثم يثنى على والده " جامع " بأنه هو الذى جدد البناء وأعلاه ، ووصفه بالتقوى ، وقضاء حوائج المحتاجين ، ولئن كان عمره قصيراً كالزهور لكنها تترك العطر زاكياً ، يقول :

أقـام لهـا ركنـاً أخـو الهـدى جـامع بناهـا لـه الحسـنى فـأعلى المبانيـا

ولما كان الشيخ عبدالعظيم عيد النائب الوفدى حاضراً ، لم ينس أن يعرج عليه بالمدح والثناء ، فيقول :

وإن شـئت عـداً للكـرام أولـى النهـى وكنــت بــذكر الأكــرمين مناديــا
فــلا تــنس بالــذكر المعطــر ســيداً لما نال من فضل مشى الدهر راويا
ومــا النيــل مــن عبــدالعظيم تطبــع ولكنــه طبــع عــاش بــه حاليــا

مثنياً على العصر الوفدى بكل ثناء طيب ، وعلى الحزب كذلك ورجاله ، وزعيم الحزب مصطفى النحاس الذى يدافع عن أرض النيل طالباً الجلاء ، وجمع قوى الشعب ضد الاحتلال ، حتى كدنا نرى النصر دانيا ، فالقى زعيم النيل مح طعانه فضاعت الآمال ، يقول :

ومــا الوفــد إلا الحــق والقــوة التــى تضـم صـناديدًا وتحـوى دراريـا
رجـال نـراهم مـا ارتضـوا أن يـذلنا عـدو فجـاؤوه اسـوداً ضـواريا
يســير بهــم إقــدام مصــطفى قوى الحجا من عاش للنيل حاميا
زعـيم أبـى أن نقطـع الـدهر كلـه عبيـداً لأعـداء لنـا ومواليـا[1]

إلى أن ينهى إخوانيته على هذا المنوال ، من مدح وثناء على الزعيم وحزبه وجهاده فى سبيل الوطن ، وهكذا معظم القصائد التى تبدأ بمقدمة غزلية أو خمرية أو غير ذلك من المقدمات ، ترى الخيط

---

(١) الديوان ٣٠٠ ، ٣٠١ .

السحرى الذى يضم هذه المتفرقات فى وحدة واحدة ، كما فى هذه الإخوانية من مقدمة غزلية، ثم مدح جده وقومه، ثم يمدح النائب عن الدائرة ، لأنه كان حاضراً ، ويثنى عليه ، ثم يعرج على زعيم حزب الوفد " مصطفى النحاس " لما استقال عن قيادة الحزب ، والفراغ الذى تركه إلى آخر ما قال من مواضيع متعددة كالقصيدة العربية القديمة ، ولكن يربط بينهما خيط رفيع تتجمع أفكارها حوله .

بيد أن الشاعر لم يمض على هذا المنوال طويلاً ، فسرعان ما استجاب لدواعى التجديد ، وتمثل ذلك فى وحدة الموضوع ، وترك المقدمة الغزلية أو الطللية أو غيرها ، فكان الشاعر يدخل على موضوعه دخولاً مباشراً ، خاصة فى الإخوانيات العاطفية ، فنجد أن الإخوانيات عنده لم تعد موضوعات متعددة يربط بينها الوزن والقافية ، ولم تعدد مفككة الأوصال ، بل أصبحت وحدة واحدة ، يربط بينها خيط شعورى واحد تنسج حوله أفكار الإخوانية فتحققت فيها الوحدة الفنية من وحدة الموضوع ووحدة المشاعر ووحدة الجو النفسى ، وما استلزمه ذلك من ترتيب الأفكار والصور والجو النفسى والألفاظ وتلوين الموسيقا بلون واحد ، نابع من موقف نفسي واحد ، يعانيه الشاعر لحظة ولادة التجربة ، وبروزها إلى حيز الحياة ، بحيث يصبح العمل الفنى ، كما قال العقاد : " عملاً فنياً تاماً يكمل فيه تصوير خاطر أو خواطر متجانسة ، كما يكمل التمثال بأعضائه ، والصورة بأجزائها واللحن الموسيقى بأنغامه ، بحيث إذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها "[1] ، وهذا يتطلب من الشاعر إجادة معمار القصيدة ، والتأمل الطويل فى منهجها ، وفى الأثر الذى يريد أن يحدثه فى المتلقى، وما يلزم ذلك من ترتيب الأحداث والتسلسل المنطقى للأفكار ، واستيفاء كل فكرة فى مكانها ، حتى لا يمكن العودة إليها مرة أخرى ، وللألفاظ عطاؤها الدلالى والايحائى ، ليتجمع كل ذلك وصولاً بالتجربة نحو النضج النفسى والذهنى كلما قاربنا النهاية ، وللوحدة بهذا المفهوم أثرها

---

(١) الديوان فى الأدب والنقد ١٣٠ .

فى الصور والأخيلة ، إذ تصبح كل صورة كالبنية الحية فى بناء القصيدة وإذكاء الشعور فيها ، ولا تكون تقليدية ، تتراكم على حساب ما تملى الذاكرة، أو تستوحى من مظاهر خارجية، لا تمت بصلة إلى التجربة"[1] فتصب كل عناصر العمل الشعرى فى اتجاه واحد ، وتعمل مجتمعة على إيصال ما بنفسه إلى المتلقى ، والوحدة الشعرية على هذا رباط " يضم التجربة والصور والانفعالات والموسيقا والألفاظ فى وشاح خفى أثيرى"[2]، وتعنى أن تكون كل فكرة فى مكانها المهندس لهامن بداية القصيدة ، بحيث تكون الفكرة نتيجة لما قبلها ومقدمة لما يأتى بعدها ، بينهما ترابط عضوى ، وتماسك وتلاحم بحيث لا يمكن فصل فكرة عن الأخرى ، بل كل الأفكار تسير فى اتجاه واحد يتناهى باطراد إلى آخر القصيدة ، لتتم الوحدة الموضوعية بتمام الوحدة العضوية ، أو بتمامها معاً يكون عمل القصيدة كلها فى اتجاه واحد ، هو التأثير فى نفس المتلقى، فتعمل عملها ، وتحقق المراد منها ، وإن كان بعض النقاد لم يشترط تلك الوحدة فى الشعر الغنائى ، كما سبق أن ذكرنا ، فنقول : إن دعوى الوحدة العضوية بتلك المقاييس سليمة من ناحية الفلسفة الجمالية ، ولكنها لا تكاد تتصور فى الشعر الغنائى الذى يقوم على تداعى المشاعر والخواطر ، فى غير نسق وضعى محدد ، وإنما تتصور هذه القصائد ذات الموضوع الذى له بدء ووسط ونهاية ، وبذلك لا تكون الوحدة إلا فى فنون الأدب الموضوعى[3] ومهما يكن من أمر ، فقد حقق الشاعر الوحدة الفنية بشقيها الموضوعى والعضوى فى أكثر إخوانياته باستثناء المرحلة الأولى التى كان فيها مقلداً للقدماء سائراً على منوالهم .

ومن النمط الثانى الذى تحققت فيه الوحدة الفنية وهو الأكثر والأغلب إخوانيته إلى والده التى يقول فيها :

أمـــن المصـــاب وعظمـــه تتوجـــع والعـــين منـــك ســـيولها لا تقطـــع

---

(١) النقد الأدبى الحديث / محمد غنيمى هلال ٢٠٤ .
(٢) الشعر العربى على ضوء النقد الحديث / مصطفى السحرتى ٨٢ .
(٣) النقد والنقاد والمعاصرون / محمد مندور ١١٣ بتصرف .

إلى آخر أبياتها كما سبق فى أخوة البنوة .

فالإخوانية فى رثاء والده ، وقد تحدث فيها عن :

١ - عظم المصاب .

٢ - كثرة البكاء الذى لا يجدى .

٣ - فعل الدنيا بأهلها .

٤ - أثر الوفاة على الشاعر .

٥ - الحزن الحقيقى .

٦ - حكم حول الحياة والموت .

وهذه الأفكار وإن كانت متعددة ، إلا أنها تدور حول موضوع الموت وهو رثاء الراحل العزيز ، وبذلك تحققت الوحدة الموضوعية والعضوية معاً ، حتى جاءت هى وغيرها كبنية حية متماسكة ، دفقة شعورية واحدة ، فتعمل عملها فى نفس المتلقين لها .

د – الخاتمة :

وينهى الشاعر إخوانيته بنهاية عرض موضوعه ، فإن كان الانتهاء حسناً ، وقع موقعاً مختاراً طيباً من النفس ، لأنه آخر ما يعيه السمع ، ويرتسم فى النفس، وكان مناسباً لموضوع الإخوانية متمماً للوحدة الفنية، وإن كان غير مختار ، كان بخلاف ذلك ، وربما أنسى محاسن ما قبله[1] كما فى إخوانية النسب لجده هاشم الرفاعى حيث ختمها بالثناء على الممدوح وهو جده ، يقول :

فهـذا الـذى إن عـاش يحيـا مكرمـاً وإن مات يمضى خالد الذكر باقيا

وبعد جده يمدح والده ويرثيه خاتماً بقوله :

---

(١) بغية الإيضاح ٤ / ١٥٧ .

قضى عمره مثل الزهور فعيشها قصير ، ولكن تترك العطر زاكيا[١]

أو يختمها بتبرئة ساحة أخيه داعياً إلى رفض الذل ، وإبعاد ما يسئ للسمعة ، ويذهب لوم اللائمين ، وشماتة الشامتين ، كما فى إخوانيته لأخيه ، يقول :

كذلك فى ربى الوادى يذوق المر أحرار
متى رفض الهوان فتى فليس ينالـه عار[٢]

أو تختم بالدعاء أن يدوم الحب وتحفظ الروابط كما فى إخوانية نسبية لأمه ، يقول :

حفوا بغار رأس من قد قدمت روحاً وقلباً بالمشاعر مترعا
إن الفؤاد وقد أضاء بحبها وروابط الإخلاص لن تتقطعا[٣]

أو تختم بالدعاء والثناء على جده ووالده ، يقول :

لهما من الرحمن ألف تحية ما مال بالأرجاء غصن باسق[٤]

أو تختم بالمدح ، كقوله فى إخوانية لجده :

فمنار إرشاد وكعبة قاصد وغيات مذعور وغيث مؤمل[٥]

أو بقوله :

فإن صغت فيك الشعر درا فإنما لمثلك يهدى الشعر والشكر والحمد[٦]

---

(١) الديوان ٣٠١ ، ٣٠٢ .
(٢) الديوان ٢٢٥ .
(٣) الديوان ٣٣٢ .
(٤) الديوان ٢٩٨ .
(٥) الديوان ٣٠٥ .
(٦) الديوان ٣٠٨ .

إلى غير ذلك مما يناسب طبيعة الموضوع المتحدث عنه ، ويتفق معه محققاً الوحدة الموضوعية والعضوية ، كما سبق الحديث عنه .

أثر البيئة فى إخوانيات ذوى الرحم

ظهر أثر البيئة فى الإخوانيات ، سواء بيئة القرية ، أم بيئة الزقازيق التى انتقل إليها دارساً ، أم بيئة القاهرة ، أم وطنه العربى أم أمته الإسلامية فى كافة نواحى الحياة ، فقد تأثرت بالبيئة تأثراً واضحاً .

ومن ظهور أثر البيئة الدينية – فى نظر كثير من الناس – التصوف بفكره وعاداته وسلوكه ومريديه وأعلامه وإشاراته مما ظهر جلياً فى أدب الإخوانيات ، يقول فى إخوانية لجده :

إن أبصرت عيناك شامخ قبة ... غراء تجتاز السحاب وتعتلى
ورأيت ساحات لها قد زينت ... فبدت لعينيك ذات ثوب أجمل
خفقت بها الله أرفع راية ... فى ظلها الأملاك تهبط من عل
قد جمع الأحباب فى ساحاته ... من كل ساع للثواب معجل[1]

فهو يتحدث عن ذكرى المولد ، وقد تجمع الأحباب حول المقام ، واكتظت بهم الساحات المزينة بالبيارق ، والأعلام التى تخفق ، وتتنزل حولها الملائكة ، حول القبة الشامخة ، ويشير إلى مآدبهم التى يقيمونها ، وذبائحهم التى يذبحونها ، فى إخوانية لجده ، فيقول :

متى تأتهم تلق السماحة والندى ... وإن عدت من دار لهم عدت راضيا[2]

ويقول فى إخوانية أخرى :

رب الندى وصاحب الساحات من ... كان السحاب لكل وادٍ ممحل[3]

---

(١) الديوان ٣٠٤ .
(٢) الديوان ٣٠٠ .
(٣) الديوان ٣٠٥ .

ويقول أيضاً :

وفـى الساحة الكبرى أقيمت منازل يرى عندها الإكرام والخير والرفد[1]

ويذكر من معالمهم بناء المقام وتشييد الصرح ، فيقول :

همام بنى للدين مجداً مؤثلاً وشيد صرحاً للحنيفة عاليا[2]

ويهتمون بزيارة القبور ، ويرون مجامعهم مجامع للإرشاد ، يقول :

ألم بقبر الشيخ إن جئت زائراً تجد عند قبر الشيخ للخير ناديا
مجامع للإرشاد من حج نحوها يكن فى الورى من عثرة الإثم ناجيا[3]

والمتصوفة فى هيامهم بالذات الإلهية ، وحبهم لها ، شبهوا حبهم لله بشرب الخمر ، بجامع السكر والغياب عن الشعور فى كل ، فقد شربوا الهدى من كأس التقى ، ولا يدخل الجنة أحد إلا من بابهم ، ولذلك يقفون بالباب ، ويناشدون العطف والفتح ، كما يطلبون الخشوع عند زيارة قبر الشيخ ، ويستعيذون بالنبى ﷺ إلى غير ذلك مما هو موجود فى بيئة الصوفية ولا نوافقهم عليها – يقول فى إخوانية لجده :

ثملوا بشرب الهدى من كأس التقى فشرابهم نعم الشراب الريق
يا قوم إنى قد وقفت ببابكم والباب دونى لا أظن سيغلق[4]

إلى آخره مما هو موجود فى إخوانية الجد .

ومن أثر الحياة السياسية فى الإخوانيات أن كان عضو الدائرة الشيخ / عبدالعظيم عيد النائب الوفدى يحضر هذه الاحتفالات السنوية ،

---

(١) الديوان ٣٠٧ .
(٢) الديوان ٣٠٠ .
(٣) الديوان ٣٠١ .
(٤) الديوان ٢٩٧ ، ٢٩٨ .

فكان الشاعر يعرج عليه فيمدحه ، ويمدح حزبه حزب الوفد وزعيمه / مصطفى النحاس كقوله فى إحدى اخوانياته بعد مدح جده ووالده :

وإن شئت عداً للكرام أولى النهى ... وكنت بذكر الأكرمين مناديا
فلا تنس بالذكر المعطر سيداً ... لما نال من فضل مشى الدهر راويا
جواد عهدناه إلى البر مسرعاً ... إذا غيره فى البرأ بدى توانيا[1]

إلى آخر ما قاله فى أخوة الجد .

ومن أثر البيئة السياسية والاستبداد السياسى الذى كان ديدن الحكومات المتعاقبة فى مصر ، ما حدث من حكومة نجيب الهلالى الذى اعتقل الأحرار والفدائيين ، ومن ضمنهم شقيقه الأستاذ/ مصطفى الرافعى ، كما توضح ذلك هذه الإخوانية التى يقول فيها :

مضى للنوم سمار ... خلت من أنسهم دار
فما أشجى لهم لحن ... ولا قدرن مزمار
وعدت بمهجة حرى ... وقلب ملؤه نار[2]

إلى آخر ما قاله فى أخوة النسب .

ومن أثر الحياة الاجتماعية والبيئة المصرية فى إخوانياته الاحتفال بعيد للأم كأثر لاحتكاكنا بالغرب ، والاحتفال بعيد للربيع كعادة مصرية قديمة منذ أيام الفراعنة ، كما تشير إلى ذلك إخوانيته لأمه ، حيث يقول :

عيد الأمومة والربيع تجمعا ... عيدان قد طلعا على الدنيا معاً
كسيا الوجود محبة ونضارة ... لله ما أبهى الوجود وأبدعا
هذا يسطر للحنان صحائفاً ... بيضاً ، وذاك العطر فيه تضوعا[3]

---

(١) الديوان ٣٠١ .
(٢) الديوان ٢٢٥ .
(٣) الديوان ٣٣٢ .

وقد سبق أن اشرنا إلى أثر التصوف فى الألفاظ ، بيد أن هناك بعض الملحوظات التى لا تغض من قدره كشاعر إسلامى ، ، وهى القسم بغير الله تعالى ، ولعله تأثر بها من البيئة المصرية حيث يكثر فى الريف المصرى القسم بالآباء والأجداد وبكل عزيز وغالٍ ، مع منافاته للشرع الحنيف ، فى قوله ﷺ : " من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليذر " ، وذلك فى إخوانية نسبية إلى جده ، حيث يقول :

قسماً بهم لوزرتهم لوجدتهم أندى عليك من الغمام المثقل[1]

وربما دفعته عاطفته نحو آبائه للقسم بهم ، كما يفعل عوامنا فى الريف المصرى .

وكذلك يطلب من الزائر أن يلم بالقبر ، وفى هذا مخالفة شرعية ، يقول :

ألم بقبر الشيخ إن جئت زائراً تجد عند قبر الشيخ للخير ناديا[2]

وكذلك قوله فى إخوانية لجده :

فاقصد إلى بيت العلا من هاشم وباب أرباب الندى فترجل[3]

كأنها المدينة المنورة – على ساكنها أفضل الصلاة والسلام .

---

(١) الديوان ٣٤٠ .
(٢) الديوان ٣٠١ .
(٣) الديوان ٣٠٤ .

الخاتمة

وبعد فهذه الدراسة الأدبية لإخوانيات ذوى الرحم عند هاشم الرفاعى ، وهى حلقة من إخوانياته عامة ، التى هى بدورها حلقة ، من حلقات الإخوانيات فى الأدب العربى الحديث .

وسأحاول أن أوجز أهم معالم هذه الدراسة ونتائجها التى كشفت عنها على النحو التالى :

١- مهدت للبحث بتمهيد تتبعت فيه مفهوم الإخوانيات عند ذوى الرحم .

٢- أشرت إلى حياة الشاعر فى نقاط وضحت المؤثرات العامة فى حياة الشاعر من حيث النشأة الدينية والعلمية والصوفية ، والروافد التى غذت شاعريته ، وغير ذلك من العوامل المؤثرة فى حياته وشعره وملامح شخصيته الاجتماعية ، ثم ذكرت آثار الشاعر الأدبية ، حيث أطلعنى أخوه ومحقق ديوانه على صور لهذه المخطوطات ، التى سيضيفها فى الطبعة القادمة – إن شاء الله تعالى – ثم ذكرت الدراسات السابقة عن ، أدب الشاعر ، وذكرت الدراسات السابقة فى فن الإخوانيات خاصة ، ووضحت الدراسة أن دراسة فن الإخوانيات عند الشاعر يعد حلقة من حلقات دراسة الفنون الأدبية فى الأدب العربى الحديث .

٣- وضحت الدراسة ظروف كل نص من النصوص وأثر الحياة فيه من سياسية واجتماعية ودينية واقتصادية وعلمية وثقافية وأدبية وصولاً إلى تصوير العلاقات الاجتماعية ، التى كانت الإخوانيات الأدبية صدى لها .

٤- وفى مجال أخوة ذوى الرحم كشفت الدراسة عن أن أقوى علاقات النسب والقرابة هى علاقة الابن بأبيه حرارة عاطفة وجيشان إحساس ، تليها علاقة الابن بأمه ، والحفيد بجده ، ولم تظهر علاقة الأخ

بأخته ، أو علاقة الزوجية الصريحة ، لأن الشاعر لم يتزوج كما سبق أن ذكرنا ، كما ظهرت علاقة الأخ بأخيه وبابن عمه والعلاقة بالأسرة والأهل جميعا .

٥- قدمت لإخوانيات ذوى الرحم بمقدمة كشفت فيها عن مفهوم هذه الأخوة ، وأسبابها ، ومظاهرها فى المجتمع المصرى على ضوء الدراسة التحليلية ، ثم وضحت مدى وجود هذه الأخوة فى شعر الشاعر حسبما توافر من نماذج فى ديوانه .

٦- أما المعانى والأفكار ، فقد بدأت متأثرة بالقدماء فى الأعم الأغلب ، ثم أخذ يجدد ، وبدأت شخصيته فى النمو شيئاً فشيئاً ، فنمت واستقلت فكان الجديد المبتكر ، حتى صار له أسلوبه الخاص الذى يحمل أفكاره ومعانيه ثم وضحت كيف كان مرتبطاً بتراثنا قرآناً كريماً وسنة نبوية شريفة وشعراً – اقتباساً وتضميناً – وحكماً وظهر ذلك فى تأثره بالتراث فى صوغ معانيه وألفاظه وعباراته وصوره وأخليته ، كما سجلت ظاهرة المبالغات ، ووضحت أنها كانت فى حيز المقبول الذى وقع فيه الشعراء قبله إلا ما ندر ، وقد سجلت كثيراً من النماذج وحللتها تحليلاً فنياً ، يكشف عن هذه السمات .

٧- كشفت الدراسة عن الموضوعات العامة التى تضمنتها الإخوانيات من موضوعات عاطفية وشعورية كالحب والشوق والاجلال والاحترام وموضوعات اجتماعية كالتهنئة والتعزية والرثاء موضحاً أهم الخصائص الفكرية لشعر إخوانيات النسب والقرابة عند هاشم الرفاعى ، ثم تتبعت الأغراض التفصيلية التى تناولتها الموضوعات الإخوانية ، فوجدتها تشمل : المدح والرثاء والتعزية والتهنئة والوصف والمشاركة الوجدانية والحكم والشوق والحنين ، إلى غير ذلك من الأغراض التى تضمنتها إخوانياته .

٨- تحدثت عن العاطفة فى إخوانيات هاشم الرفاعى ، ووضحت كيف كانت بين القوة والشدة وبين الهدوء والخفة حسب الجو الشعرى

الذى يقتضيه المقام .

٩- عبر هاشم عن الإخوانيات فى ذوى الرحم بما تحمل من روابط وعلاقات ود وحب أو غيرهما ، مما يكون بين الأهل والأقارب متخللاً بين النفوس ، معبراً عن هذه العلائق فى دقة وإحكام ، معبراً عن مشاعره وعواطفه وانفعالاته نحو إخوانه بأسلوب عالى الجودة ، يحمل الكثير من سمات الفن الأدبى الأصيل .

١٠- قلد هاشم الشعراء المشهورين وحاكاهم ونسج على منوالهم فى كافة عصور الأدب منذ الجاهلى إلى العصر الحديث مروراً بالأموى والعباسى وشعرائهم المشهورين .

١١- كما كشفت الدراسة عن استخدام هاشم للغة استخداماً راقياً ، بإجادة واقتدار ، فلم تعجز على لسانه عن التعبير عن شأن من الشئون ، وهذا دليل على طواعية اللغة ، وقدرتها على التعبير عن قضايا العصر ومشكلاته ، والتعامل مع كل جديد ، ولعل فى ذلك ما ينفى عن لغتنا تهمة القصور عن مواكبة التطور والتقدم العالمى فى كافة المجالات ، ويفضح زيف الداعين إلى العاميات أو اللغات الأجنبية ، راغبين فى إبعاد اللغة وزحزحتها عن مكانتها ، وعن موطنها كيداً للإسلام والمسلمين .

١٢- اقترب هاشم بلغته من مستوى الجماهير ، مما مكن لشعره وإخوانياته خاصة من الذيوع والانتشار ، معبراً عما يدور فى النفوس من آلام وآمال ، مشاركاً أمته أفراحها وأتراحها ، ومن ثم كان أسلوبه قريباً من مستوى كثير من طبقات الأمة ، حتى الطبقات الشعبية ، عقد لها باباً فى نهاية ديوانه ، يخاطب به طبقة شعبية معينة .

١٣- تحدثت عن الموسيقا فى الإخوانيات ، ووضحت كيف كانت مناسبة لأغراض الإخوانيات ، وكيف أبدع الشاعر فيها ، وأمتعنا بكل ما يسر ويلذ السمع ، ومع ذلك لم يخرج عما سار عليه القدماء ، من وزن وقافية ، وعد الخروج عليهما خيانة ووقف لدعاة الشعر الحر بالمرصاد،

وكيف أجاد فى توصيل كافة أغراض الإخوانيات ، مع الحفاظ على الوزن والقافية ، مهتماً بالموسيقى داخلية وخارجية بعناصرها المختلفة ، مما يساعد على سوق المعانى فى حالة من الموسيقا ، تدفع النفس إلى القبول والاذعان .

١٤ ـ سجلت المحسنات البديعية التى استخدمها الشاعر ممثلاً لكل منها ، وقد وضحت كيف أن الشاعر كان معتدلاً فى استخداما ، بحيث لا تلحظ هذه الظاهرة فى شعره ، فكانت كالملح فى الطعام كما يقال .

١٥ ـ كانت العاطفة متقدة بحماسة الشباب وفورانه ، وكانت خلف ملكته الشعرية تدفعها للقول والإبداع ، وكان نتاجه دليلاً على قوة العاطفة وعمقها ، فى صوغ الإخوانية من دفقة شعورية واحدة من موضوع واحد ، يواجه المتلقى ، فيؤثر فى وجدانه بحرارة عاطفته وأفكاره ومعانيه فى غالب إخوانياته .

١٦ ـ كشفت الدراسة الفنية للألفاظ والعبارات عن دقة الشاعر فى اختيار ألفاظه الموحية المعبرة ، وحكمته فى بناء عباراته البناء المحكم الرصين ، متأثراً بشعرنا القديم فى جزالة اللفظ وقوته ، ورصانة العبارة وإحكامها ، وكيف كانت البداية مع القدماء ، ثم بدأت الشخصية فى النضج والاستواء ، فالاستقلال شيئاً فشيئاً ، حتى صار له اسلوبه الخاص ألفاظاً وعبارات ، تسهل وتسلس وترق فى مواطن الرقة ، وتقوى وتشتد فى مواطن الشدة والقوة ، بما تحمل من ألفاظ جزلة قوية وعبارات رصينة محكمة ، تناسب الأغراض التى سيقت فيها ، والسهولة والبساطة فى الصياغة التى قربته إلى جماهير القراء ، والأغراض التى تمس جوانب الحياة الإنسانية المختلفة ، وأشرت إلى تأثرها بالعصر والبيئة منبها إلى ما دخلها من ألفاظ دخيلة ، ومصطلحات فنية ، وبعض الألفاظ العلمية مستشهداً لذلك كله بالأمثلة والشواهد كأثر من آثار البيئة ، كما تأثرت بالثقافة الإسلامية لغلبة ذلك الاتجاه على شعر الشاعر ، فكان كتاب الله هو النبع الأول الذى تستمد منه معانيه ثم الحديث النبوى ، ثم شعر الأقدمين اقتباساً وتضمينا

ومحاكاة وتقليداً ، إلى أن استقلت شخصيته وتميزت ، بحيث لم يخرجه تميزه عن هذا الإطار .

١٧- ومن ناحية الخيال ، فقد كان عميق الخيال ، سواء فى الخيال الكلى أم الجزئى ، وكيف رسم لوحات جميلة ، استوفت حظها من الجمال الفنى والأدبى ، وأنه استمد صوره من القدماء تارة ، وتارة بالتحوير ، فبدت جديدة ، مما جعل تصويره يشع حركة وحياة ما بين صر جزئية وكلية ، راسمة الظلال والإيحاءات صوتاً ولوناً وحركة وتذوقاً ، مما أحيا مشاهده ، وحول المتلقى إلى مشاهد .

١٨- وضحت الدراسة بناء الإخوانية عند الشاعر من حفاظ على عنوان لكل إخوانية ، معبراً عن أفكارها ومعانيها ، وكيف أنه اختار هذه العناوين بنفسه ، وتميزه فى براعة الاستهلال بإجادة المطالع خمرية أو غزلية على طريقة القدماء أو إيمانية كذلك ، وحسن التخلص إلى موضوعه ، الذى يعرضه كيف يشاء ، سائراً على منهج القدماء / حيناً فى بناء الإخوانية من عدة موضوعات ، فتظهر مفككة متعددة الموضوعات ، وقد أبنت أن هناك خيطاً رفيعاً يربط بين أجزاء الإخوانية ، ومع هذا لم يستمر الشاعر طويلاً على هذا فسرعان ما حقق لإخوانياته الوحدة الفنية بشقيها الموضوعى والعضوى ، بعد فترة وجيزة من بدايته الشعرية ، فكانت إخوانياته دفقة شعورية واحدة على منهج المحدثين ، مما جعلها تسير فى اتجاه واحد إلى نفس المتلقى ووجدانه ، فيكون لها التأثير المرجو ، وكان يدخل إلى موضوعها مباشرة ، أو بتمهيد أرضية للمسرح الذى تدور حوله معانى الموضوع المتحدث فيه ، فكان موفقاً فى الوعى ببناء القصيدة العربية ، وتحقيق الوحدة الفنية فيها .

١٩- ثم كان حين الخاتمة ، وكيف أنها كانت مناسبة لموضوع الإخوانية ، وكانت نهايات موفقة لموضوعات مختارة . وكل ذلك من العنوان الموفق إلى براعة الاستهلال إلى حسن التخلص وحسن الخاتمة، يدور فى نطاق تحقيق الوحدة الفنية بشقيها (الموضوعى والعضوى)

الذى أجاد فيه الشاعر إجادة ، شهد له بها كل من قرأ نتاجه .

٢٠- أما عن أثر البيئة فى إخوانيات ذوى الرحم ، فكانت صدى للبيئة المصرية ، بأحداثها التى تدور على الساحة ، وظهر أثرها فى الإخوانيات ألفاظاً ومعانياً وصوراً .

٢١- هذا ويلاحظ أنها أخذت جانب الشعر ، فلم يكن له إخوانيات نثرية ، لاقتصار آثاره الأدبية على ما ورد فى ديوانه تقريباً ، ولم يطل به العمر حتى يرى له غير ذلك .

٢٢- أن الروافد لشعر الإخوانيات تعليمه ، وبيئته الدينية ، ثم دراسته واطلاعه على التراث القديم ، الذى هذب وصقل الموهبة ، ونماها ، ثم تأثره بما تعانيه أمته تأثراً ينم عن وعيه المبكر بأحداث عصره ، اجتمعت هذه الروافد لتصب بعمق فى تكوين الشاعر هاشم الرفاعى .

٢٣- تظهر براعة هاشم فى إخوانياته التى تشعر القارئ بجمال شعره وروعته ، دون أن يدرى سبباً لهذا الجمال وهذه الروعة خاصة إخوانياته التى يصف فيها الأحاسيس الداخلية للنفس ، وهمسها وإضفاء الحركة والانفعال عليها ، ومهما حلل الدارسون والنقاد أسباب الجمال ، فإننا نجد لأدبه نفاذاً إلى القلوب لا يستطاع تعليله ، كما قال بعض النقاد : " إن هناك جمالاً لا يستطاع تعليله " .

٢٤- ضرورة وجود مثل هذا اللون من الدراسات لفنون الأدب ، حتى لا تذهب جهود الباحثين هدراً فى مواضيع لاقيمة لها ، ولا تغنى الدراسة الأدبية بقليل ولا كثير ، وحتى لا تنفصم الجهود الأدبية عن الواقع الذى نعيشه ، بحيث لا تكون الدراسة فى واد ، والناس فى واد آخر، فيطل علينا الأدب من برج عاج بعيداً عن دنيا الناس وواقعهم ، فالأدب الصحيح مرآة لحياة الأمة ،ولما يوجد بين أفرادها من علائق وصلات .

٢٥- هذه الدراسة حلقة فى دراسة الإخوانيات عند الشاعر

خاصة، وفى فن الإخوانيات عامة ، وهى رؤية فنية تحليلية تكشف عن خصائص هذا الفن ومضامينه .

٢٦- أدب الإخوانيات أدب حر معبر عن العلاقات الأخوية ، بعيداً عن الرسميات ، له رسالة خالدة فى إيضاح هذه الروابط الأخوية على كافة اشكالها الاجتماعية .

٢٧- تستند الدراسة فى كافة نواحيها إلى أسباب أدبية واقعية ، لها رصيد من إخوانيات الشاعر ، فلم تكن آراء مسبقة ولا خيالية .

فهرس المصادر والمراجع

١- الإخوانيات فى العصر الأيوبى على ضوء العلاقات الاجتماعية / عبادة إبراهيم أحمد (رسالة دكتوراه – ١٤١٠ هـ ١٩٩٠م .

٢- أسرار البلاغة للإمام عبدالقاهر الجرجانى تحقيق محمد رشيد رضا مطبعة الترقى بمصر ١٣٣٠ هـ .

٣- الأسس الجمالية فى النقد العربى ، عرض وتفسير ومقارنة د/ عز الدين إسماعيل / دار الفكر العربى بالقاهرة – ١٩٧٨م .

٤- أسس النقد الأدبى عند العرب د/ أحمد أحمد بدوى – دار نهضة مصر القاهرة ١٩٧٩م .

٥- الإسلام فى شعر شوقى د/ أحمد الحوفى ، طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٦- أصول النقد الأدبى / أحمد الشايب / مكتبة النهضة المصرية " ٨ القاهرة – ١٩٧٣م .

٧- أناشيد الدعوة الإسلامية المجموعة الثالثة تحقيق / أحمد الجدع ، وحسنى أدهم جرار ، دار الوفاء بالمنصورة ودار الضياء ا، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

٨- بغية الإيضاح لتلخيص علوم الفتاح / عبدالمتعال الصعيدى ، المطبعة النموذجية ، مكتبة لآداب ومطبعتها بالجماميز .

٩- بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس للإمام أبى عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر النمرى القرطبى ٤٦٣هـ تحقيق محمد مرسى الخولى ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٢م .

١٠-بين الأدب والنقد د/ محمد عبدالمنعم خفاجى ، د/ محمد نايل الطبعة الأولى بدوت تاريخ .

١١-التصوير الفنى فى شعر محمود حسن إسماعيل د/ مصطفى السعدنى، طبعة منشأة المعارف بالاسكندرية .

١٢-تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لابن مسكويه – ٤٢١هـ مطبعة وادى النيل ١٢٩٩هـ وطبعات أخرى .

١٣-التوجيه الأدبى ، طه حسين وآخرون ، الطبعة الرابعة ١٩٤٠م .

١٤-حولية كلية اللغة العربية ، جرجا ، العدد الثانى ١٤١٨هـ ١٩٩٢م .

١٥-الحيوان للجاحظ الطبعة الأولى ١٣٨٣هـ ١٩٦٨م تحقيق فوزى عطوان ، دمشق ، سوريا .

١٦-الخيال الشعرى عند العرب ، أبو القاسم الشابى ، الشركة القومية للتوزيع ١٩٦١م .

١٧-دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى ، طبعة رشيد رضا شركة الطباعة الفنية الحديثة بالقاهرة ١٩٦١م .

١٨-ديوان صفى الدين الحلبى ، دار صادر ، بيروت للطباعة والنشر ١٩٦٢م .

١٩-الديوان فى الأدب والنقد للعقاد والمازنى ، الطبعة الثالثة ، دار الشعب .

٢٠-ديوان هاشم الرفاعى (الأعمال الكاملة) تحقيق عبدالرحيم جامع الرفاعى ، مكتبة الإيمان بالمنصورة ، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ١٩٩٦م .

٢١-رحلة مع النقد الأدبى ، د/ فخرى الخضراوى ، وكالة الصحف العالمية .

٢٢-سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى شرح عبدالمتعال الصعيدى ١٩٦٩م.

٢٣-شاعر العربية والإسلام / أحمد محرم / لمحمد إبراهيم الجيوشى – دار العروبة ١٩٦١م .

٢٤-شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ، لجنة التاليف والترجمة والنشر ، ١٩٧٢م الطبعة الثانية تحقيق عبدالسلام هارون احمد امين – القاهرة .

٢٥-الشعر الجاهلى ، محمد النويهى ، الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة .

٢٦-الشعر العربى على ضوء النقد الحديث / مصطفى السحرتى مكتبة الانجلو المصرية ، مطبعة المقتطف والمقطم ١٩٨٤ هـ .

٢٧-الشعر المصرى بعد شوقى د/ محمد مندور الحلقة الأولى .

٢٨-الشعر والفنون الجميلة / إبراهيم العريض ، دار المعارف بمصر .

٢٩-الصناعتين لأبى هلال العسكرى تحقيق على محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة الأولى القاهرة ١٩٥٢ .

٣٠-العمدة فى صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيروانى تحقيق محمد محى الدين عبدالحميد طبعة دار الجيل بيروت ١٩٧٢م .

٣١-عيار الشعر لابن طباطبا (محمد أحمد بن طباطبا العلوى) تحقيق طه الحاجرى ، محمد زغلول سلام ، المكتبة التجارية ١٩٥٩م .

٣٢-فنون الأدب تشارلتن ترجمة زكى نجيب محمود طبعة لجنة التأليف والنشر ١٩٤٥م .

٣٣-فى النقد الأدبى شوقى ضيف – دار المعارف بمصر ١٩٦٢م .

٣٤-فى النقد الأدبى الاسلامى د/ إبراهيم عوضين مطابع الشناوى

بطنطا .
٣٥-قواعد النقد الأدبى ابروكومبى (لاسل) ترجمة محمد عوض ١٩٥٤م .
٣٦-مجلة الرسالة عدد ٢٨ فى ١١ يناير ١٩٣٤م د/ شوقى ضيف .
٣٧-مقدمة ابن خلدون ٨٠٨هـ ١٤٠٥م دار الشعب بلا تاريخ .
٣٨-موسيقا الشعر د/ إبراهيم أنيس الطبعة الخامسة ١٩٧٢م .
٣٩-موسيقا الشعر د/ شكرى عياد – دار الفكر العربى ١٩٦٩م .
٤٠-نشيد الكتائب مجموعة أناشيد أبو مازن دار الوفاء بالمنصورة .
٤١-النقد الأدبى الحديث / محمد غنيمى هلال / دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٣م .
٤٢-النقد والنقاد المعاصرون د/ محمد مندور مكتبة نهضة مصر .